بسم الله الرحمن الرحيم

حكمة الدعوة

تأليف

الشيخ رفاعي سرور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله. والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد...

عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فترل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغه في صدري ثم أطبقه)([1]).

هذا الحديث يؤكد قيمة الحكمة في تحديد منهج الدعوة وتكوين أصحاها وإنشاء واقعها وتحقيق غايتها.

حيث امتلأ ها صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الدعوة مع الإيمان وهو قضية الدعوة في لحظة واحدة كما يؤكد النص قيمة الحكمة من خلال مجيئها يحملها جبريل وهو روح القدس، في طست من الذهب وهو أغلى المعادن، في مكة وهي البقعة المباركة، ليلة الإسراء والمعراج وهي أعظم اللحظات، ليمتلئ ها صدر رسول الله وهو خير الخلق، بعد غسله بماء زمزم وهو أطهر الماء.

ورغم كل ذلك فالحكمة في واقع الدعوة القائم الآن قضية غائبة... غيبها فهم خاطئ عنها وأبقي لنا منها في عقولنا فكرة (اللين) المحدودة فصرنا نفهم أن الحكمة هي كلمة لين أو موقف رقة. فضاعت الأبعاد الهائلة لقضية الحكمة وأمسينا في فتنة نارها فكر مشتت اشتعل ليحرق بقايا متفرقة من واقع يابس ومهيأ للاحتراق.

والفتنة تزداد بمزيد الفكر المشتت الذي يجعلها أشد إحراقا.

ومن كل نقطة احتكاك بين هوج ذهني مشتعل وخمول عقلي يساعد على الاشتعال تندلع النار.

[1] متفق عليه: البخاري في الصلاة (458 - 459 /1)، ومسلم في الإيمان رقم (163) من حديث أنس رضي الله عنه وهو قطعة من حديث طويل.

أو بتعبير مباشر... من كل لقاء بين أدعياء ملكية المنهج الصحيح للدعوة وبين الراقدين في انتظار كل ادعاء تنشأ الاتجاهات النظرية المختلفة التي تضيف إلى نار الفتنة وقودا جديدا.

وقريب من واقع الفتنة المشتعلة نبع الماء الذي يطفئها.

نبع الحكمة؛ الذي يجب أن يتفجر وكل منا يترقب لنحاصر معا تلك النار ونخمدها لنبدأ مرحلة جديدة يقوم فيها كيان إسلامي واحد صحيح.

يحميه من كل جانب موقف حكيم ويمتد به في كل اتجاه كلمة وقوة حكيمة.

وهذا الكتاب...

في الابتداء سعي عملي بخطوات منتظمة لإنهاء تلك الفتنة.

وفي الانتهاء إرساء أساسي لابد منه أمام أي ممارسة منهجية للدعوة.

كما أنه فاتحة لمتواليات منهجية نتدراس من خلال كل متوالية منها – في كتاب جديد – أساسية من أساسيات الحركة. إن شاء الله.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

رفاعي سرور

الفصل الأول
معنى الحكمة

الحكمة من المفاهيم العميقة... متعددة الجوانب، والأسلوب الصحيح في تعريف مثل هذه المفاهيم هو جمع النصوص التي تضمنته من كل جوانبه والخروج بتعريف محدد له من مجموع تلك النصوص.

لغة وشرعا:

الجانب الأول: وفيه جاء تعريف ابن عباس للحكمة أنها: (معرفة القرآن ناسخه ومنسوخة ومحكمه ومتشابهة ومقدمة ومؤخرة وحلاله وحرامه، وأمثاله – وفي رواية تفسيره – فان القرآن قد قرأه البر والفاجر)([2]).

وعند الطبري أن الحكمة هي: (العلم بأحكام الله تعالى التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم، والمعرفة بها، وما دل عليها)، وأنها (إصابة الحق بالعلم والعمل)([3]).

كما جاء في الحكمة – من هذا الجانب – قولهم: (الحكمة هي حجة العقل وفق أحكام الشريعة).

والمعني المأخوذ من هذه التعاريف أن الحكمة مفهوم منبثق عن أصل الشرع وأنها تعني إصابة الحق والالتزام به.

وعلي هذا فليست الحكمة كلاما من عند الناس – أو فلسفة بشرية بعيدة عن أصل الكتاب والسنة.

ولذلك كان فهم ابن عباس للقرآن أثرا لدعاء النبي صلى الله عليه ومسلم له أن يعلمه الله الحكمة، بدليل قول ابن عباس ([4]) الذي رواه: (ضمني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال: اللهم علمه الحكمة)([5]).

[2] انظر تفسير ابن كثير (1/571) وتفسير الطبري (5/576).
[3] راجع التفسير للطبري (5/576) ففيه آثار بهذا المعني.
[4] أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (7/100) من حديث عكرمة عن ابن عباس.
[5] ولذلك جاء في تفسير ابن كثير.

ولذلك رفض أحد الصحابة تعريفا للحياء أدعي صاحبه أنه حكمة بعد تعريف رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سمعت عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحياء لا يأتي إلا بخير، فقال بشير بن كعب: مكتوب في الحكمة: أن من الحياء وقارا وأن من الحياء سكينة. فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدثني عن صحيفتك)([6]).

ومن أجل الارتباط بين الحكمة وبين الحق والشرع صار التفكير فيما لا ينبغي وبما يخالف الشرائع إفراط في مفهوم الحكمة حيث جاء في كتاب الكليات للبغوي (أن الإفراط في الحكمة هو استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات وعلي وجه لا ينبغي كمخالفة الشرائع).

وبذلك يكون الارتباط بين مفهوم الحكمة وأصل الشرع والحق هو الجانب الأول من جوانب المفهوم.

الجانب الثاني: وفيه جاء قول الله عز وجل: (يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) [سورة البقرة الآية: 269].

وهو دليل على أن الحكمة إيتاء من الله عز وجل لمن يشاء من عباده.

ولذلك يقول ابن القيم: (والله تعالى أورث الحكمة آدم وبينه فالرجل الكامل من له ميراث كامل من أبيه، ونصف الرجل - كالمرأة - له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى وأكمل الخلق في هذه الرسل صلوات الله وسلامة عليهم وأكملهم أولوا العزم وأكملهم محمد صلى الله عليه وسلم)([7]).

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)([8])، وفيه دليل على أن الحكمة كذلك تكون بالتعلم.

[6] متفق عليه: البخاري في الأدب (10/521)، ومسلم رقم (37) من حديث عمران بن حصين.
[7] والسفهاء جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأي القليل بمواضع المصالح والمضار، ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء في قوله تعالي (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) قال عامه علماء السلف. هم النساء والصبيان.
[8] متفق عليه: البخاري في العلم (1/165)، ومسلم رقم (816) عن ابن مسعود.

كما جاء في هذا الجانب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يماني والحكمة يمانية)([9]) وفيه دليل على ارتباط صفة الحكمة بالتكوين الإنساني من خلال صفات أخلاقية محددة.

والعلاقة بين الحكمة والإنسان من خلال قدر الله بإيتائها للأنسان واكتسابها بالتعلم والاستعداد بالطبع الأخلاقي هو الجانب الثاني من جوانب هذا المفهوم.

الجانب الثالث: وفيه جاء تعريف الحكمة: بأنها العدل في القضاء.

كما جاء أنها التجربة، حيث جاء في تعريف الإمام الزبيدي: (قولهم رجل حكيم أي رجل أحكمته التجارب) وقد اتفق التفسير الشرعي مع المعنى اللغوي في هذين الأمرين حيث ورد في معنى الحكمة أنها القضاء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)([10]).

كما ورد أن الحكمة هي التجربة في قول رسول الله عليه وسلم: (لا حليم إلا ذو عثره ولا حكيم إلا ذو تجربة ([11]).

ثم يضاف إلى هذين الأمرين أمر ثالث وهو إجماع المفسرين على أن الحكمة هي السنة.

وبذلك تكون الحكمة قد جاءت بمعنى القضاء والتجربة والسنة.

وبالنظر في هذه الأمور الثلاثة نجد أنها تتفق في أصل واحد وهو (الواقع).

حيث أن القضاء هو حكم في (واقع) معلوم.

وأن التجربة هي حقيقة مستنبطة من (واقع) مشاهد.

وأن السنة هي (واقع) تطبيق القرآن.

وقد جاءت علاقة الحكمة بالواقع بصفة مباشرة في تعريف الحكمة مثل قولهم:

[9] متفق عليه: البخاري في المغازي (8/99)، ومسلم رقم (52) في الإيمان عن أبي هريرة.
[10] مرّ قريبا وأوله: لا حسد إلا في اثنتين.
[11] أخرجه البخاري في الأدب المفرد (2/26) وأحمد في مسنده (3/69)، والترميذى في البر والصلة رقم (2033) وقال (حسن غريب). والحاكم (2/293) وصححه ووافقه الذهبي! وابن حبان (1/208).

(هي العلم بحقائق الأشياء والعمل بمقتضاها)([12]) وقولهم: أن الحكمة هي (علم بأحوال أعيان الموجودات على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية)([13]).

وارتباط الحكمة بالواقع هي الجانب الثالث من جوانب المفهوم.

الجانب الرابع: وفيه جاء قول الله عز وجل: (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) [سورة القمر الآية: 5]، وبالغة تعني أنها تبلغ منتهاها وغايتها.

كما جاء في تعريف الحكمة عن الحسن بن علي أنها: (الحق في المعني... والغاية في الإشارة).

وقد عرف ابن القيم الحكمة بما يؤكد معنى الغاية وذلك في قول الله: (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ) [سورة القمر الآية: 5]، وقوله: (وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) [سورة النساء، الآية: 113]، وقوله: (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً) [سورة البقرة، الآية: 269] حيث قال: (الحكمة هي العلم النافع والعمل الصالح وسمي الحكمة لأن العلم والعمل قد تعلقتا بمتعلقاهما وأوصلا إلى غايتها وكذلك لا يكون الكلام حكمة حيى يكون موصلا إلى الغايات المحمودة والمطالب النافعة فيكون مرشداً إلى العلم النافع والعمل الصالح فتحصل الغاية المطلوبة).

وواضح من التعريف علاقة مفهوم الحكمة بمعني الغاية.

وارتباط مفهوم الحكمة بمعني الغاية هو الجانب الأخر من جوانب المفهوم.

وبعد التحديد المجرد لجوانب مفهوم الحكمة من خلال علاقته بالشرع و الإنسان والواقع والغاية... يكون التعريف العام بها بعد ارتباطها بمفهوم الدعوة، أنها (حاسة الصواب... الكامنة في كيان الداعية محددة له في واقع الدعوة... سبيل الوصول إلى الغاية).

حكمة الدعوة:

واضح من تعريف الحكمة أنها مفهوم واقعي عن أصل شرعي يستحيل تحقيقه في فراغ عملي أو إصدارة عن عقل بشري.

---

[12] تعريف الإمام الزبيدي في كتاب تاج العروس.
[13] تعريف صاحب النار.

و لذلك فإنه مما يتنافى مع مفهوم الحكمة أن يكون هناك أي إضافة فكرية إلى هذا الفراغ العملي الذي تعيشه الدعوة باعتبار أن هذه الإضافة الفكرية تضخيم لفتنة الفكر القائمة بالظهور النظري للاتجاهات والمناهج، في غيبة الواقع الصحيح الذي يعتبر مقياساً أصلياً في تحديد المنهج الصحيح للعمل.

ومن هنا كان إنشاء الواقع الصحيح هو الخطوة الأولى في تحقيق معنى الحكمة.

و لذلك يحدثنا النبي صلى الله عليه وسلم بأن الحكمة ابنة الواقع فيقول:

(الإيمان يماني والحكمة يمانية)([14]) فوصف الحكمة بأهل اليمن، فجعل الواقع بذلك هو الأصل، والحكمة موصوفة به، مما يؤكد أنه لا وجود للحكمة إلا بالواقع. ولذلك يضرب رسول الله عليه وسلم مثلاً لواقع الحكمة بالا شعريين وهم أهل اليمن.

فقال صلى الله عليه وسلم: (إني لأعرف أصوات رفقه الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار، ومنهم حكيم إذا لقي الخيل أو قال العدو. قال لهم: إن أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم)([15]).

وقد ورد في هذا الحديث عدة أقوال منها أن حكيم اسم رجل معين وهذا قول بعيد، والأقرب أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومنهم حكيم إذا لقي الخيل أو العدو...).

أن هذا مثل تطبيقي لمقتضى الحكمة وهو أن الوصول إلى مرحلة القتال لا يكون إلا بعد استنفاد أقصي طاقات التأني وهو المقصود بكلمة (أن تنظروهم) وهذا يعني أن قول رسول الله مقصود به ظاهرة سلوكية ناشئة في الواقع عن طبيعة الحكمة في أهل اليمن.

فالواقع الصحيح مقياس للحق ودليل ذلك هوالتعبير القرآني عن الخطأ الشرعي باستحالة الحدوث في الواقع كما في قول الله تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) [سورة المجادلة، الآية: 22].

فالأصل في الآية أنها نهي عن مودة الكافرين، ولكن هذا النهي جاء في صيغة استحالة الحدوث (لا تجد) لأن المنهي عنه شرعاً مستحيل حدوثه في الواقع الصحيح.

[14] سبق تخريجه رقم (7).
[15] متفق عليه: البخاري (7/485)، ومسلم رقم (2499) عن أبي موسى

و الواقع الصحيح دليل للإثبات الشرعي، ولذلك كان الإمام مالك يعتبر عمل أهل المدينة باعتبارهم الواقع الصحيح أقوي إثباتاً للأحكام من الأحاديث الصحيحة إذا كان هناك خلاف بين الاثنين – الواقع والنص – ([16]).

والواقع الصحيح أصل في حجة الله على الكافرين ولذلك يدحض القرآن حجة الكافرين بواقع الإستجابة.

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) [سورة الشورى الآية: 16].

وعلى أساس هذه القاعدة كان الحوار الذي بين هرقل ملك الروم وأبو سفيان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي تساءل فيه هرقل عن شواهد واقعية محددة ثم شهد بعدها بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه الشواهد كافية عنده دون أن يناقش نصاً قرآنياً، واحدا، وهذا ما يثبت قيمة الواقع في إثبات صواب المنهج، وكانت التساؤلات تدور حول ما يتعلق بصاحب الدعوة ونفي الشبهات عنه.

أيغدر...؟ أيكذب...؟ هل قال أحد مقالته...؟ هل من أبية من ملك...؟ هل هو فيكم ذو نسب...؟ وما يتعلق بواقع الدعوة ويثبت صحته.

أفقراء الناس اتبعوه أم أغنياؤهم...؟ هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه...؟ كيف حال الحرب بينكم...؟ أيزيدون أم ينقصون...؟ ([17]).

وما نعنيه بالواقع الصحيح للدعوة على وجه التحديد هو الجماعة المسلمة التي تبلغ كلمة الله ثم تقاتل حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

إذ أن هذا الواقع بذلك التحديد هو الوضع المقابل للتفرق والاختلاف.

فمن ناحية التبليغ يكون الدليل هو قول الله عز وجل: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ 104 وَلاَ

[16] يراجع كتاب (صحة أصول مذهب أهل المدينة للإمام ابن تيميه)

[17] البخاري في الإيمان (1/31) من حديث ابن عباس رضى الله عنه. وقد استدل البخاري لتعليقات هرقل علي إجابات أبي سفيان في أبواب كثيرة. مثال ذلك: باب قوله الله تعالي: (هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) والحرب سجال. وباب من استعان بالضعفه الصالحين في الحرب وغيره. والحديث بنصه البخاري.

تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [سورة آل عمران الآيتان: 105، 104].

ومن ناحية القتال يكون الدليل هو قول الله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ) [سورة الصف الآيتان 2 4].

وإذا كان إنشاء الواقع الصحيح هو الخطوة الأولى في تحقيق معنى الحكمة.

وكانت الجماعة هي التحقيق العلمي لمفهوم الواقع الصحيح، فإن قيام هذه الجماعة يكون بداية البدايات في تحقيق هذا المعنى.

قيام الجماعة الواحدة:

ومهمة قيام الجماعة الواحدة تقوم أساساً على الاتفاق الفكري، ولكن هذا الاتفاق في وضع الفتنة أمر صعب، ولذلك يجب أن تقوم الجماعة الواحدة في وضع الفتنة على أساس الائتلاف القلبي.

وتقديم أساس الائتلاف القلبي على أساس الاتفاق الفكري حكم من أحكام هذه الفتنة.

وقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم لكل صورة من صور الفتن موقفاً يجب اتخاذه، بحيث يمكن لنا تحديد قاعدة عامة يتم بها اتخاذ الموقف الصحيح لأي صورة من صور الفتنة وهو الموقف الذي إذا التزمة كل المسلمون توقفت الفتنة وإذا التزمة أي مسلم تحققت له النجاة منها. وهذه القاعدة يتضمنها هذا الحديث:

عن أبي ذر قال: ركب رسول الله عليه وسلم وأردفني خلفه فقال: (يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع معه أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: تعفف. قال: يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أصبر. قال: يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً حتى تغرق حجارة البيت في الدماء كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك، قلت: فان لم أترك، آآخذ

سلاحي؟ قال: إذن تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كي يبوء بإثمه وإثمك)([18]).

وواضح من الحديث ثلاث صور للفتنة... فتنة الجوع، وفتنة الموت، وفتنة الاقتتال.

ففي فتنة الجوع كان الموقف الصحيح هو التعفف.

وفي فتنة الموت كان الموقف هو الصبر.

وفي فتنة الاقتتال كان الموقف هو عدم المشاركة حتى لو بلغ الأمر أن يقتل المسلم دون أن يدافع عن نفسه وإن كان الأصل هو: (من قتل دون دمه فهو شهيد)([19]) ولكن الفتنة تقتضي اختيار القتل دون الدفاع عن النفس، وفي هذا دليل على أن الفتنة أحكاماً خاصة.

فإذا كانت الفتنة فتنة فكرية فإن الموقف الصحيح يقتضي التوقف عن الجدل والظهور النظري للاتجاهات الحركية كما يقتضي استفاضة الحب وتحقيق الود والتجمع بالتآلف القلبي.

وهذه البداية شرط في حدوث هذا التجمع وصوابه.

بمعني أن اتفاقنا على أننا واقعين في فتنة ذات طبيعة فكرية يقتضي بأن تكون الالفه بيننا مرهونة بمدي الاتفاق في فتنة فكرية وقرار الالفه حكم من أحكام مواجهة الفتنة حسب قاعدة التناسب بين طبيعة الفتنة وأحكام مواجهتها والمشار إليها في الحديث.

ويصبح اتفاقنا على أننا واقعين في فتنة فكرية عذراً لنا فيما بيننا وبين أنفسنا فيمتنع بذلك العذر اتخاذ أي موقف صراع ومواجهة بين الأطراف المختلفة.

والذي يحقق العون الأكبر على الامتناع عن حدوث الصراع بين الاتجاهات المختلفة هو إثبات مسافات التقارب بينها. ابتداء من الهدف المتفق عليه بين الجميع وهو قيام المجتمع المسلم.

---

[18] أخرجه أبو داود (11/340) وابن ماجه رقم (3958) وأحمد (5/149) والحاكم (2/157) وسنده حسن.

[19] البخاري في المظالم (5/123) من حديث ابن عمرو ولفظه:(من قتل دون ماله فهو شهيد).

وتقديم أساس التآلف القلبي على الاتفاق الفكري في قيام الجماعة لا يعني تجاهل قيمة هذا الاتفاق الفكري بل يعني ضمان الوصول إلى هذا الاتفاق من خلال ذلك التآلف، فهناك حقيقة إسلامية في النفس الإنسانية تؤكد أثر القلب والإحساس على العقل والفكر اتفاقاً واختلافاً، ومنطوق هذه الحقيقة هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)([20]).

وكذلك فهناك حقيقة تؤكد أثر العقل والفكر على القلب والإحساس ومنطوقها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)([21]).

ولكن التآلف الذي يتطلبه قيام الجماعة لا يقل عن الحد الذي حدده النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد – من قريب ومن بعيد – بالسهر والحمي)([22]).

وكان هذا الحديث هو الواقع الذي عاشه المسلمون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا رسول الله ومعه أبو بكر في طريق الهجرة يشتد عليهما الحر ويصيبهما الجوع فيذهب أبو بكر ليبحث عن ظل لرسول الله فيجد ظلاً لا يكفي غير واحد فيهيئه لرسول الله ويجلسه فيه ثم يذهب ليبحث عن طعام فيجد راعي غنم فيستأذنه في شيء من اللبن ويذهب به إلى رسول الله ثم يقول:

فشرب رسول الله حتى (ارتويت) وفي رواية حتى (رضيت)([23]).

وهذا أبو هريرة يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول له: يا رسول الله، أذكر لي آية الإنفاق، فيضحك رسول الله ويقول له: (انك جائع يا أبا هريرة ويعطيه لبنا)([24]).

[20] علقه البخاري في الأنبياء (6/369) من حديث عائشة، وأخرجه مسلم في البر والصلة رقم (2638) من حديث أبي هريرة.

[21] أخرجه أبو داود (364 2/365) والنسائي (89 - 2/90) من حديث البراء بن عازب وسنده صحيح.

[22] متفق عليه: البخاري في الأدب (10/438)، ومسلم في البر والصلة رقم (2586) من حديث النعمان بن بشير.

[23] متفق عليه: البخاري في المناقب (6/622)، ومسلم في الأشربة (2009) عن البراء وانظر صحيح مسلم (4/2309).

رسول الله يشرب وأبو بكر يرتوي ويرضى.

ويجوع أبو هريرة ويشعر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد قيام الجماعة بالتآلف، والمواجهة مع الجاهلية، تنشأ عوامل أخرى تزيد من التآلف وتعمق الترابط.

وأبرز تلك العوامل هو الإحساس بالخطر الذي يحيط بالجماعة.

وقد انصهرت بهذا الإحساس مشاعر المهاجرين والأنصار في بوتقة الشدة التي بلغت أقصاها في غزوة الأحزاب، ولذلك يثبت القرآن الكريم أن قيام العلاقة الإسلامية الكاملة كان نتيجة طبيعية لمعايشة تلك المحنة.

فيصور لنا تلك العلاقة بخلفية الأحداث التي عاشها المهاجرون والأنصار في مواجهة خطر الأحزاب ثم يجعل هذه العلاقة التي عمقتها المحنة عمقاً للعلاقة الإسلامية على امتدادها التاريخي وإلى قيام الساعة.

فجاء في سورة الحشر: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) [سورة الحشر الآية: 2]

ثم يقول: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) [سورة الحشر، الآية: 9، 8]

ثم يقول: (وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [سورة الحشر الآية: 10].

وفي سورة الأحزاب؛ يحدد القرآن الأسس الشرعية التي تنتظم بها العلاقة بين المؤمنين، ولكنه يذكر بعد تلك الأسس عمق المحنة الذي قامت به تلك العلاقة أصلاً، فيقول: (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى

[24] البخاري في الرقاق (11/281) من حديث أبي هريرة.

بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) [سورة الأحزاب الآية: 6] .

وهذه هي الأسس، ثم يقول بعدها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) [سورة الأحزاب الآيتان: 10، 9].

وفي الواقع الإيمان الصحيح لا تؤثر نتائج المواجهة ولا تغير مشقاتها في حقيقة الحب والتآلف الذي قامت عليه الجماعة.

فلا يشعر فرد أن الجماعة هي التي جرت عليه هذا الأذى. وقد أثبت لنا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة عندما بعث رجلاً من الصحابة ليبحث عن رجل بين القتلى في إحدى الغزوات فوجده في لحظات الموت. فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام. فقال الرجل: اقرىء مني رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ السلام، وقل له جزاك الله عنا خير ما جزى نبي عن أمته ([25]).

وهذا شعور رجل مقتول نحو رسول الله الذي دعاه للقتال يقرئه السلام...

ويدعو الله أن يجزيه عنه خير ما جزى نبي عن أمته.

وبهذا التآلف تحقق الاتفاق التلقائي بين مواقف الصحابة في أدق المواقف وأخطرها، فبهذا التآلف علم عمر أن قتل مانعي الزكاة حق عندما وجد أن صدر أبي بكر قد شرح لقتالهم، ولذلك يقول: (فما أن وجدت أن صدر أبي بكر قد شرح لقتالهم حتى علمت أنه الحق)([26]).

وبهذا التآلف اتفق عمر في كل ما أراد أن يقوله أبو بكر في سقيفة بني ساعده تلقائيا، وذلك عندما اجتمع المهاجرون والأنصار في السقيفة لاختيار الخليفة بعد وفاة

[25] الصحابي الذي كان في لحظات الموت هو: سعد بن الربيع الأنصاري والذي جاءه هو: أبي بن كعب انظر أسد الغابة (2/348).
[26] متفق عليه: البخاري في الزكاة (3/262)، ومسلم في الإيمان رقم (20) عن أبي هريرة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد عمر أن يتكلم فمنعة أبو بكر وتكلم هو. فقال: عمر: (فوالله ما ترك كلمة كنت أريد أن أقولها إلا قالها)([27]).

وقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم حب الصحابة له دليلاً على الولاء عندما قال المتحدث عن قريش في معاهدة الحديبية: (اجئتنا برعاع الناس، ما أراهم إلا تاركيك ومنفضين عنك ([28]).

وقصة ضوءه صلى الله عليه وسلم وإبتدار أصحابه له ورجوع المتحدث – وهو عروة بن مسعود – وقوله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد في أصحابه هو من تمام الحديث.

فما أن توضأ رسول الله عليه وسلم حتى أخذت الصحابة بقية وضوئه تتمسح به وما أمرهم أمراً إلا ابتدروا أمره.

فرجع المتحدث عن قريش يقول: (لقد رأيت الروم وقيصر... ورأيت الفرس وكسري ما وجدت قوماً يعظمون ملكهم كما يعظم أصحاب محمد محمدا وأري أن تصالحوه).

نهاية الفتنة الفكرية:

وبقيام الجماعة ينشأ الواقع الصحيح للفكر، لأن الجماعة هي الواقع الشرعي للتلقي، والمنظم الدقيق للفكر، والحاكم الرشيد للعقل، والحماية الحقيقية من الخطأ.

وبقيام الجماعة يصبح بقاؤها والحفاظ عليها أولي مبدئياً وعملياً من محاولة الاتفاق على أي أمر طالما تحقق الاتفاق على الأصل الذي قامت به الجماعة.

حتى لا يترتب على تلك المحاولة انشقاق في كيان الجماعة التي قامت.

ودليل هذه الحقيقة هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا كان المسلمون على أمر رجل واحد وجاء من يشق عصاهم يكون الصواب هو قتل هذا الثاني([29]).

---

[27] أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (19 – 7/20) من حديث عائشة رضى الله عنها ولكن ليس فيه جملة (ما ترك كلمة...) إنما فيه: ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس. وعن ابن عباس رواه في الحدود (144 – 12/145) مطولاً.

[28] أخرجه أحمد في مسندة (323 – 4/324) في قصة طويلة من حديث السور بن مخزمة ومروان بن الحكم وفيه: أنهم بعثوا إلي النبي صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفي فأتي رسول الله فجلس بين يديه فقال: يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها... الحديث. وسنده صحيح.

حيث لن يكون لحقه قيمة في مقابل قيمة الجماعة الواحدة والمحافظة عليها.

ودليل آخر هو الأمر بترك المراء مه الاعتقاد بأن ما عند الفرد وما يريد إثباته هو الحق، وذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وهو محق)([30]).

حيث يتضح من الحديث أن ترك المراء وهو من أخطر أسباب التفرق هو الأمر الواجب.

ولو كانت محاولة الاتفاق على أي أمر أولي من المحافظة على العلاقة بين أفراد الجماعة لما كان هناك أمر بترك المراء رغم الاعتقاد بأن المراد إثباته هو الحق لأن الحديث يقول: (لمن ترك المراء وهو محق).

ولذلك يجب أن تتحدد العلاقة بين الرأي الفردي ورأي الجماعة بما يضمن الاستفادة من فكر الفرد مع تفادي خطر الرأي الفردي على الاتفاق الجماعي.

أساس هذه العلاقة هو حق الفرد في إبداء رأيه، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الدين النصيحة... الدين النصيحة... الدين النصيحة... قالوا لمن يا رسول الله؟ قال: (لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)([31]).

بشرط أن تنتهي علاقة الفرد برأيه بمجرد الإبداء فلا يعجب به بعد إبدائه حيث أن هناك نهياً عن الإعجاب بالرأي.

ونصه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من علامات الساعة... شح مطاع... وهوي متبع... واعجاب كل ذي رأي برأيه)([32]).

---

[29] مسلم في الإمارة رقم (1852) والآخرة رقم (1853) عن أبي سعيد ونصه (من أتاكم وأمركم جميع علي رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه) والحديث الآخر (إذا بويع لخليفتين في الأرض فاقتلوا الأخير منهما).

[30] حسن: أخرجه أبو داود (13/156) عن أبي أمامه وفيه أبو كعب أيوب بن محمد السعدي لا يعرف وللحديث شواهد يرتقي بها إلي الحسن أو الصحة.

[31] أخرجه مسلم من حديث تميم الداري رقم (55) في الإيمان.

[32] أخرج الترميذي في التفسير (3058) وأبو داود (11/493) وابن ماجة رقم (4014) والبغوي في شرح السنة (14/348) من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً.

ائتمروا بالمعروف وتناهْوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطعاً وهوي متبع ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك. ومسنده ضعيف أما ما ذكر هنا من علامات الساعة – شح مطاع... – فلا فلا أراه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، نعم ثبت حديث ابن عمر مرفوعاً عند الطبراني في الأوسط ثلاث مهلكات... فشحّ مطاع وهوي متبع واعجاب المرء بنفسه.

وبذلك تعتبر الجماعة هي المرحلة الأولى في إنهاء فتنة الفكر يتبعها في ذلك مرحلة ثانية وهي إحكام الفكر ذاته.

الفصل الثالث
إحكام الفكر الإسلامي

والإحكام من أبرز معاني الحكمة...

ولذلك يعرف ابن القيم الدرجة الأولى من الحكمة فيقول: (أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه وحده ولا تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه) ثم يقول: وهذا الحكم عام لجميع الأسباب مه مسبباها شرعاً وقدراً فأضاعتها تعطيل للحكمة بمترلة إضاعة البذر وسقي الأرض وتعدي الحد كسقيها فوق حاجتها بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد وتعجيلها عن وقتها كحصاده قبل أوانه وكماله)([33]).

وإحكام الفكر يعني تنظيم العلاقات بين حقائق الفكر الإسلامي إذ أن لكل حقيقة في الإسلام حد لا ينبغي تجاوزه والمساواة بين الحقائق في كوها (فكرة إسلامية) من أهم أسباب الاضطراب في محاولة تحديد منهج الحركة، ومن هنا جاءت تعبيرات النبي صلى الله عليه وسلم بما يفيد العلاقات المنظمة بين الحقائق.

فمثلاً نجد التعبير بأم الكتاب. الذي جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا صلاه لمن لم يقرأ بأم الكتاب)([34]).

والتعبير بسيد الاستغفار الذي جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبرك بسيد الاستغفار)([35]).

والتعبير برأس الأمر الذي جاء في قوله صلى الله عليه وسلم ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه: (الجهاد)([36]).

فتعبيرات (أم) و (سيد) و (رأس) تفيد العلاقة.

[33] مدارج السالكين ج2 ص 469.
[34] متفق عليه: البخاري في الأذان (2/237) ومسلم في الصلاة (394) من حديث عبادة ابن الصامت.
[35] البخاري في الدعوات (11/97) من حديث شداد بن أوس.
[36] صحيح: الترمذي في الإيمان (7/362) وقال حسن صحيح، والحاكم في التفسير (2/412) وصححه علي شرطهما ووافقه الذهبي والمسند (5/531).

وكذلك نجد في تعبير النبي صلى الله عليه وسلم حرصاً على ألا يطغي مفهوم على مفهوم تحقيقاً للإحكام بين المفاهيم، مثال قوله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)([37]) ثم قرأ: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) [سورة الغاشية: آيه: 22: 21]، وذلك حتى لا يغطي مهمة القتال على مهمة التذكير في فهم الناس.

وكذلك عندما بين النبي صلى الله عليه وسلم بأن الوضوء وصلاة ركعتين وراءه يغفر ما تقدم من الذنوب فإنه يحقق الإحكام بين الرجاء والغرور، عن حمران قال: (كان عثمان رضى الله عنه قاعداً في المقاعد فدعا بوضوء فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله عليه وسلم توضأ في مقعدي هذا ثم قال: (من توضأ مثل وضوئي هذا ثم قام فركع ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه)([38]) وقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم... (ولا تغتروا).

وكذلك عندما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مؤمن يموت له ثلاث أولاد إلا كانوا له حجاباً من النار)([39])، فإنه عليه الصلاة والسلام يستثني استثناء هاماً فيقول: (ألا تحلة القسم) وهو قول الله: (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا) [سورة مريم الآية: 71].

وبذلك تتقرر حقيقة الحجاب من النار بموت الثلاثة أولاد مع حقيقة الورود عليها تحلة للقسم دون تناقض.

وأساس الإحكام الفكري في الإسلام هو أن تكون كل الحقائق متهجة نحو غاية نهائية واحدة.

ولتحقيق ذلك يجب قياس كل حقيقة إلى غايتها... فمثلاً:

حقيقة الإيمان تقاس بقول (لا إله إلا الله) بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق... والحياء شعبة من الإيمان)([40]).

[37] متفق عليه: البخاري في الإيمان (1/75)، ومسلم في الإيمان أيضاً رقم (22) عن ابن عمر.
[38] متفق عليه: البخاري في الوضوء (1/259)، ومسلم في الطهارة (226) عن عثمان بن عفان.
[39] متفق عليه: البخاري في الجنائز(3/18)، ومسلم في البر رقم (3632) عن أبي هريرة، وتفسير تحلة القسم من كلام البخاري وليس بمرفوع.
[40] مسلم رقم (35) في الإيمان من حديث أبي هريرة وعند البخاري نحوه في الإيمان أيضاً (1/51).

وحقيقة العمل تقاس بالصلاة بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سئل: أي العمل أفضل قال: الصلاة على وقتها، قيل: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قيل: ثم أي، قال: الجهاد في سبيل الله: ([41]) وقوله صلى الله عليه وسلم: (أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله)([42]). وحقيقة المقام والمكانة تقاس إلى مقام النبوة بدليل قول الله عز وجل:

(فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) [سورة النساء الآية: 69]، وقول النبي صلي الله عليه وسلم: (أنا كافل اليتيم في الجنة هكذا)([43])، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطي، وقوله: (التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين)([44])... وهكذا.

وقيمة الإحكام الفكري في الإسلام ترجع أساساً إلى هذا الإحكام الفكري هو المقدمة الطبيعية للإحكام التطبيقي الذي يضمن قيام الواقع الإسلامي بصبغته الخالصة كما أرادها الله سبحانه.

والحكمة هي أساس تحقيق هذه الصبغة، لأن الحكمة هي الحكم التطبيقي بين الحقائق.

فلا يجوز أن تأخذ الدعوة صورة كلامية بحتة أو صورة قتالية بحتة... أو صورة اعتزالية بحتة... رغم أن التبليغ بالكلمة حق شرعي في ذاته... والقتال حق شرعي في ذاته... والاعتزال أو الهجرة حق شرعي في ذاته.

ولكن الحكمة هي التي تعطي لكل حق شرعي في ذاته. حق التطبيق في الواقع...

ومن هنا يجب أن تكون هناك حساسية شديدة في قبول أي صورة تطبيقية للفكر في الواقع.

---

[41] البخاري (2/9) من حديث ابن مسعود.

[42] أخرجه الترمذي رقم (413) من حديث أبي هريرة وحسنه والنسائي (1/232)، وأحمد (5/377) ونحوه (2/290) ن والحاكم 1/0263) وصححه ووافقه الذهبي – وهو كما قالا.

[43] البخاري (10/236) عن سهل بن سعد رضى الله عنه.

[44] الترمذي رقم (1209)، والحاكم (2/6) من طريق الحسن عن أبي سعيد.

وهؤلاء هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكون رجلاً إلى رسول الله لأنه يقرأ في كل صلاة بسورة: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)([45]) رغم أن الفعل جائز شرعاً إلا أنهم رأوا في هذا العمل مظهراً جديداً في التطبيق.

وعلي أساس الارتباط بين الحكمة والإحكام كان التقابل بين الحكمة والبدعة ذلك أن البدعة هي في تطبيقها فكرة دخيلة على إطار الفكر الإسلامي المُحكم وقد أورد الإمام ابن تيميه في التقابل بين الحكمة والبدعة قول الإمام أبو عثمان النيسابوري (من جلس إلى صاحب بدعة حرم الحكمة) كما قال: (من أمّر السنة على نفسه قولاً وعملاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وعملاً نطق البدعة)([46]).

وأقرب تشبيه للعلاقة بين الحقائق في واقع الفكر الإسلامي هي العلاقة بين العناصر الكونية التي تشكل بصفة دقيقه الواقع الكوني.

وتماماً مثلما يتجاوز العنصر الكوني حدوده فتنشأ الظواهر الكونية المدمرة، كذلك تكون الحقيقة عندما نتجاوز بها حدودها في واقع الدعوة.

ولنعمق هذا التصوير بمثال لحقيقة من الحقائق التي تجاوزنا بها حدودها لنرى آثار هذا التجاوز... حقيقة الحذر... وحدودها الصحيحة في واقع الفكر هو حد التوكل على الله الذي نخوض به الأحداث، وحد الإيمان بالقدر الذي نتقبل به نتائج الأحداث.

ولكن بتجاوز الحذر لهذين الحدين صار الحذر جبناً يقعد عن العمل... وريبة تفسد العلاقة وتبدد الاطمئنان. وأغرق تجاوزنا بحقيقة الحذر لحدودها واقع الدعوة بظاهرة مدمرة أشد تدميراً... وهي ظاهرة الاتهام بالعمالة التي هبطت بمستوي الثقة في مجال الدعوة بصفة عامة ولم تضر فقط بالعناصر التي أصابها هذا الاتهام، لأن افتراض وجود عميل بين المسلمين معناه افتراض العمالة في كل مسلم، والقاعدة أنه لا يوجد من هو فوق الشبهة. وهذا لا يرجع إلى واقع الشخصية الإسلامية. ولكن يرجع إلى أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

وبافتراض العمالة يضيع الاطمئنان فلا تقوم علاقة ولا تكون جماعة ولا تصير دعوة وهذا هو البعد النهائي للافتراض.

وقد كانت ظاهرة الاتهام بالعمالة نتيجة مباشرة لفتنة الفكر.

[45] علقه البخاري في (الآذان)(2/255) عن أنس ووصله الترمذي والبزار وغيرهم.
[46] كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان للإمام ابن تيميه ص 35.

وذلك عندما تجاوز التفكير العقلي حد التوكل على الله والإيمان بالقدر مع فقدان التآلف في مجال الدعوة فصارت العلاقة الإنسانية في هذا المجال علاقة عقلية جافه مهيأة لتقبل أي محاولة خبيثة لتفتيتها، ومن هنا يمكن القول بأنه إذا كان التآلف القلبي أساساً المنهجي من حيث الفكر فإنه في نفس الوقت أساس للاطمئنان الوجداني الذي يعتبر شرطاً جوهرياً للممارسة الحركية بعد الاتفاق المنهجي.

والعلاقة الإنسانية في مجال الدعوة لا تقوم إلا بالاطمئنان المطلق والثقة الكاملة.

وهذا حديث يؤكد هذه الحقيقة:

عن أبي سعيد الخدري قال: (خرجنا حجاجا – أو عمارا – ومعناه ابن صياد، قال: فنزلنا منزلاً فتفرق الناس وبقيت أنا وهو فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه ([47]) قال: وجاء بمتاعه فوضعه على متاعي، فقلت: أن الحر شديد فلو وضعته تحت تلك الشجرة، قال ففعل، قال فُرفعت لنا غنم فانطلق فجاء بعس فقال: اشرب أبا سعيد، فقلت: إن الحر شديد واللبن حار – ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده، أو قال آخذه عن يده – فقال يا أبا سعيد: لقد هممت أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة ثم أختنق مما يقول الناس، يا أبا سعيد: من خفي عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله عليه وسلم؟ أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو كافر ([48]) وأنا مسلم؟ أو ليس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو عقيم لا يولد له وقد تركت ولدى بالمدينة؟ أ, ليس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل المدينة ولا مكة وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة؟ قال أبو سعيد الخدري: حتى كدت أن أعذره، ثم قال: أما والله إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن) قال قلت له: تباً لك سائر اليوم)([49]).

فمن خلال هذا النص ندرك أنه كان هناك اقتناع عقلي ببراءة ابن صياد من الاتهام ولكن هذا الاقتناع لم يكن كافياً لقيام علاقة حقيقية، بدليل رفض أبي سعيد الخدري أن يكون متاعها فوق بعضه، ورفضه أن يشرب اللبن من يده، ورغم كل ما ذكره له ابن صياد من أدلة، فإنه يقول: لقد كدت أعذره. أي أنه لم يعذره العذر الكامل.

كما ندرك إحساس المتهم بمن حوله من الناس. وكيف دفعه هذا الإحساس إلى قوله: (لقد هممت أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة ثم أختنق مما يقول الناس).

[47] كان ما يقال عليه أنه هو المسيح الدجال.
[48] يقصد الدجال.
[49] أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد رقم (2927).

وهذا أقرب تعبير يكشف لنا الواقع النفسي لمن يعيش في موضع الاتهام بين الناس وهو بريء، وكما كانت عقلانية العلاقة الإنسانية في مجال الدعوة وجفافها جواً لظهور الاتهام بالعمالة فإنها كانت عاملاً مساعداً على تضخيم تلك الظاهرة وذلك من خلال مواجهتها بصورة عقلية بوليسية بحتة.

وإنهاء ظاهرة الاتهام بالعمالة لا يتحقق بالأساليب البوليسية التي قد يتصور البعض أنها وسيلة الاطمئنان، وذلك لسبب بسيط وهو أن الاتهام بالعمالة من الاتهامات التي تفقد المتهم قدرته في الدفاع عن نفسه.

وأقرب تشبيه للاتهام بالعمالة في هذه الناحية هو الاتهام بالجنون. فمثلما تتحول محاولة المتهم بالجنون في الدفاع عن نفسه إلى ظاهرة من ظواهر الجنون في تصور الناس... فإن أي محاولة يحاولها المتهم بالعمالة للدفاع عن نفسه ستقابل في ذهن الناس على أنها سلوكاً يحتمه دور العمالة الذي يؤديه. فتضيع المحاولة هباء منثورا.

وبذلك نري كيف وضع الاتهام بالعمالة الدعوة في طريق مسدود من حيث الاتهام ذاته ومن حيث فقدان القدرة على مواجهة ذلك الاتهام.

وإذا كان العلاج قد بدا صعباً أو مستحيلاً فإنه يبدو سهلاً ممكناً في ضرورة إحكام العلاقة بين الحقائق الإسلامية من حيث التطبيق.

فإذا كان بجانب حقيقة الحذر... حقيقة التوكل على الله وحقيقة حسن الظن. وحقيقة الإيمان بالقدر خيره وشره لتحقق الاتفاق بين الحقائق... وهذا هو الإحكام... وتلك هي الحكمة.

الفكر والقدر:

وبعد أن اتفقنا على ضرورة الإحكام الفكري بتحديد العلاقة بين الحقائق. نريد أن نتفق على تحديد العلاقة بين الفكر ذاته بعد إحكامه وبين القدر الإلهي باعتبار أن قيام الواقع الإسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله ولا يرجع إلى التفكير البشري المحدد لقيام هذا الواقع.

ولذلك يقول ابن القيم في تعريف الحكمة: (الحكمة حكمتان عملية وعلمية فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً وأمراً، قدراً أو شرعاً)([50]).

وحقيقة أن قيام الواقع الإسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله، بديهية يدركها كل داعية، ولكن هذا الإدراك غالباً ما يكون مجرد مبدأ نظري لا يؤثر في واقع الحركة من حيث تحديد المنهج أو أسلوب العمل.

والعلاقة بين الفكر والقدر يحددها من حيث الواقع عدة حقائق:

أن التفكير البشري مجرد سبب قد يحدث القدر بدونه وقد يحدث بما يخالفه.

وهذا لوط عليه السلام يبحث بتفكيره عن ركن شديد فيقول: (أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) [سورة هود، الآية: 80]، وهو بواقعة يأوي إلى ركن شديد.فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد)([51]).

وهذا معناه أن قدر الإيواء من الله له تحقق فيه دون تفكير مباشر منه.

وقد يحدث بما يخالف هذا التفكير، بدليل قدر حدوث غزوة بدر بما يخالف التفكير في الاستيلاء على القافلة (وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ) [سورة الأنفال، الآية: 7] بل قد يحدث القدر بما يضاد التفكير مباشرة.

وهذا يونس عليه السلام... يفكر في الخلاص من القوم بالسفينة، فتكون هذه السفينة بقدر الله سبب هلاك، إذ يلقي منها في البحر فيلتقمه الحوت، وهو بتفكير البشر هلاك ليكون بقدر الله سبب نجاة.

من أجل ذلك فإن القرآن يعلمنا الإيمان بإطلاق القدر الإلهي ومحدودية التفكير البشري فيقول عز وجل: (فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ) [سورة المائدة الآية: 52]. ردا على المنافقين الذين لا يؤمنون بقدرة الله على تخليص المؤمنين من الاستضعاف أصلاً. وتوجيها للمؤمنين الذين يؤمنون بقدرة الله على ذلك، ولكنهم قد يحددون هذه القدرة بصورة واحدة وهي الفتح... فيقول الله: (أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ) [سورة المائدة الآية: 52]، (وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [سورة الحج الآية: 41].

[50] مدارج السالكين ج 2 ص 498.

[51] البخاري في (لأنبياء)(6/411)، ومسلم رقم (151) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

وقيام الواقع الإسلامي بصورته المادية هو في النهاية أمر غيبي لا يمكن للذهن البشري أن يحتويه ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [سورة هود الآية: 123، سورة النحل الآية: 77]، وقد يفتن الفكر البشري بارتكازه على الأسس الشرعية أو النواميس الكونية... فيجزم بضرورة تحقيق النتيجة المحددة بهذه الأسس وتلك النواميس... ولكن القدر فوق الشرع وفوق الناموس.

وهذه حقيقة الحقائق وقمة اليقين التي تملأ قلب كل مسلم حقيقة أن رسول الله سيدخل الجنة، يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم حدوثها إلى الله فيقول – كما في الصحيح – والله أني لرسول الله لا أدري ما يفعل بي ولا بكم)([52])...

وأي محاولة احتواء ذهني لأمر غيبي هي تأله على الله وتجاوز للحد البشري كما قدره الله.

وما سبق في تحديد العلاقة بين القدر الإلهي والفكر البشري كان باعتبار تحقيق الواقع، ولكن من حيث تحديد المنهج أصلا فإن العلاقة تتحدد من خلال عدة أمور.

الأول: أن التكاليف الشرعية هي التي تتضمن الأسباب القدرية لتحقيق الواقع... فإن الخطأ الشرعي في مجال الدعوة يعني استحالة أو تأخير تحقيق هذا الواقع.

وليس لهذه القاعدة أي استثناء.

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله اليهود عن الروح فيقول سأخبركم غداً، ولا يقول إن شاء الله. فلا يترل الوحي. إلا بعد فترة. الرسول صلى الله عليه وسلم يحزن فيها حزناً شديداً، ويقول فيها اليهود: ذهب عنه شيطانه.

ولما نزل الوحي بالإجابة، نزل ومعه تصحيح وتحديد السبب الذي من أجله تأخر الترول ([53]).

الثاني: تحديد السنن القدرية الثابتة وذلك بنصوص الكتاب والسنة لتحقيق التوافق معها في مجال الحركة الإسلامية وقد وضح هذا التوافق وضوحاً كاملاً في التحرك الإسلامي الأول وبالتحديد في مجال القتال.

---

[52] البخاري في (الجنائز) من حديث أم العلاء (3/114).

[53] أنظر البخاري (8/401) ومسلم رقم (2794). تفسير قول الله عز وجل ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾(الإسراء الآية: 23).

حيث كان الأسلوب القتالي مرتبطاً بسنن إهلاك الكفار لتحقيق المعني القدري للقتال وهو أنه عذاب الله للكفار بأيدي المسلمين (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ) [سورة التوبة: 14].

وهذه مقارنة سريعة بين سنن الإهلاك وأساليب القتال.

في فتح الطائف... حاصر الرسول الطائف ثلاثة أيام و لم تفتح له. فقال: سنرحل غداً، فأرادت الصحابة القتال. فتركهم يقاتلون فجرحوا جراحات شديدة. و لم تفتح لهم، فقال: سنرحل غداً إن شاء الله. وتم الرحيل. ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عروة بن مسعود وهو مشرك من الطائف ودعاه إلى الإسلام فأسلم. فذهب إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فقتلوه. فقال عليه الصلاة والسلام: (مثل عروة بن مسعود في قومه كمثل صاحب سورة ياسين وهو الذي قال الله فيه: (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) [سورة يس الآيتان: 28، 29])، وفتحت الطائف بعد قتل عروة بن مسعود([54]).

وفي فتح خيبر... قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الله أكبر خربت خيبر. أنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين). توافقاً مع قوله الله: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ 176 فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) [سورة الصافات الآيتان: 176، 177].

وفي فتح مكة يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابة أن يقولوا (حطة)([55]) كما أمر الله بني إسرائيل أن يقولوها في دخول الأرض المقدسة كما جاء في قول الله: (وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ) [سورة البقرة الآية: 58].

ولهذا قال الرسول بعد أن قالها الصحابة: (والله إنها الكلمة التي أمر بني إسرائيل أن يقولوها فلم يقولوها).

وفي غزوة الأحزاب... علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله سينصره على المشركين واليهود لما تحزبوا ضده وقال: (ابشروا معشر المسلمين) لأنهم بهذا التحزب حققوا سنة إهلاكهم، لأنه من أفعال الله أن يهزم الأحزاب. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا

[54] أخرجه أحمد في مسنده (4/323) من حديث المسور بن مخرمه ومروان بن الحكم أنظر أسد الغابة (4/33) والإصابة (2/476) وسيرة ابن هشام (2/537).
[55] البخاري (المغازي)(8/164) من حديث أبي هريرة.

عليهم)([56]) ولهذا عبر القرآن عن الكافرين بعد إهلاكهم بقوله: (أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ) [سورة ص الآية: 13]. وكان الغزو صباحاً من أهم الأساليب القتالية التي حققت التوافق بين القتال وسنن إهلاك الكافرين... حتى أصبحت الخيل هي المغيرات صبحا كما جاء في قول الله تعالى: (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا) [سورة العاديات الآيتان: 13].

والإصباح سنه إهلاك، بدليل قول الله في قوم لوط: (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب) [سورة هود الآية: 81]، وقوله: (وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ) [سورة القمر الآية: 38]، وقول الله: (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) [سورة الصافات الآية: 177].

أما الأمر الثالث: في العلاقة بين الفكر البشري وقدر الله في تحديد منهج الدعوة فهو أن الاستدلال بالنصوص الإخبارية عما سيكون في آخر الزمان وأشراط الساعة، يكون باعتبار أنها ليست نصوص تكليفية وباعتبار أنها ليست سنن قدرية يلزم التوافق فيها والحركة. بل إنها أقدار غيبية لا يلزمنا الاحتجاج بها. أما النصوص التكليفية فهي مدار هذا التأصيل.

والأمر الرابع: في العلاقة بين الفكر البشري والقدر الإلهي في تحديد منهج الدعوة هو رفض التفكير البشري البحت الذي لا يقوم على أصل شرعي أو سنة قدرية ثابتة، فهذا التفكير هو الذي سيتحول بالدعوة إلى حركة مادية، ويفقدها صفة الربانية، ولهذا نجد في واقع الدعوة الصحيح المواقف التي تؤكد صفة الربانية بصورة واضحة.

ففي الوقت الذي كان المسلمون فيه في أشد الحاجة إلى من يشاركهم قتال المشركين يرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً مشركاً يريد القتال معه ويقول له: (ارجع فإني لا أستعين بمشرك)([57]) وبالتفكير المادي في الموقف كان يمكن مشاركة هذا الرجل.

ويأتي رجل آخر إلى الرسول ويقول أقاتل أو أسلم فيمنعه الرسول من القتال معه ويقول له: (بل أسلم ثم قاتل)([58]) فبايع وقاتل فقتل، فقال عليه الصلاة والسلام: (عمل قليلا وأجر كثيرا).

[56] البخاري (7/406)، ومسلم رقم (1742) عن عبد الله بن أبي أوفي.
[57] أخرجه مسلم رقم (1817) من حديث عائشة رضى الله عنها.
[58] البخاري في الجهاد (6/24) من حديث البراء بن عازب.

وبالتفكير المادي في المواقف كان يمكن تأجيل البيعة لأن القتال دائر.

وفي وقت القتال تقام صلاة الحرب لتصلي جماعة من المسلمين وتحميها الأخرى.

وبالتفكير المادي كان يمكن تأجيل الصلاة حتى لا يضيع الوقت وإمكانيات القتال.
وفي القتال يرفع السيف عن كل من قال لا إله إلا الله، وهذا سؤال يسأله صحابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: عن المقداد بن الأسود أنه أخبر أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذمني بشجرة فقال أسلمت لله، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقتله. قال فقلت: يا رسول الله، إنه قد قطع يدي، ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله: (لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمترلتك قبل أن تقتله وإنك بمترلته قبل أن يقول كلمته التي قال)([59]).

ويدخل الدعاء كأقوى أسلحة القتال، ففي غزوة الأحزاب. ينظم الرسول كل أموره ويعد كل عدته ثم يقول: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره أدع الله يا براء أن يهزمهم وينصرنا عليهم)([60]).

ثم يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا كان البشر يحققون أهدافهم بقوهم وإمكانياهم المادية فلسنا مثلهم، فيقول: (إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم)([61]).

لأنها دعوة ربانية... تقوم بالقدر ولها أسباب وسنن ([62]).

[59] أخرجه مسلم في الإيمان رقم (95) عن المقداد بن الأسود.
[60] البخاري في المناقب (8/274) ومسلم رقم (1675) عن أنس.
[61] البخاري في الجهاد (6/88) عن سعد بن أبي وقاص.
[62] يراجع كتاب قدر الدعوة للكاتب.

الفصل الرابع
تكوين الفرد المفكر

وبعد إنشاء الواقع الصحيح للتفكير وإحكام الفكر ذاته في تحديد المنهج وتحديد العلاقة بين الفكر والقدر في قيام الواقع...

تأتي مرحلة ثالثة تنتهي بها فتنة الفكر القائمة وهي تكوين الإنسان المفكر، ووجود الإنسان المسلم المفكر تفكيراً صحيحاً هو الحل الأساسي لمشكلة الدعوة، حيث أن الفهم هو الموضع الحقيقي لتلك المشكلة. والإنسان هو صاحب الفهم، وفد صور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاقة بين المسلم ونصوص القرآن كنحلة تمتص الرحيق وذلك عندما سمع بلالا يتنقل في قرأته بين سور القرآن فقال: (أن مثل بلال كالنحلة تأكل طيبا وتضع طيبا ثم هو حلو كله)([63]).

وهذا التصوير يحدد لنا مهمة المسلم في فهم النص على أنها استخراج من رحيق القرآن حق فيه شفاء للناس.

وأي محاولة لفهم القرآن دون أن يتجاوز النص القرآني الحناجر ودون أن يكون هناك القدرة الإيمانية على امتصاص رحيق الحق من النص فإنها سترجع فهماً خاطئاً وفكراً هزيلاً.

وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم مثلاً لذلك بحديثة المستفيض بشأن الخوارج وضلالهم مع عبادتهم فقال: (يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم)([64])، وفي رواية في غير الصحيح: (لا يجاوز حناجرهم).

ومن أجل قيمة الفهم جاء تعريفّ الحكمة عن ابن عباس وفيه تحديد للإصول العلمية التي يتحقق بها الفهم الصحيح للإسلام. وفيه تعليل لذلك التحديد بأن القرآن قد قرأه البر والفاجر وذلك قوله: (الحكمة هي المعرفة بالقرآن ناسخة ومنسوخة ومحكمة ومتشابهة ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله)([65])، وفي رواية تفسيره: (فإن القرآن

[63] أخرجه الحكيم الترميذي في نوادره والطبراني في الأوسط رقم (181) عن أبي هريرة وراجع مجمع الزوائد (9/300) فقد حسنه الهيثمي.
[64] روي عن أبي سعيد عند البخاري (6/376)، ومن حديث جابر عند مسلم (1063) وهي قطعة من حديث طويل.
[65] سبق تخريجه في أول الكتاب.

قد قرأه البر والفاجر)، وهذا معناه أن تحديد هذه الأصول أصبح أمراً ضرورياً بسبب اختلاط الأفهام، ومعناه كذلك أن اختلاط الأفهام يرجع مباشرة إلى تعرض من لم يصلوا إلى مرحلة البر لتفسير النصوص.

حيث أن صفة البر في الإنسان أصل في فهم القرآن.

وقيمة الإنسان في فهم الإسلام ترجع إلى الإتفاق بين الحق في الإسلام والفطرة في الإنسان ودليل ذلك معروف وهو قول الله: (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [سورة الروم الآية: 30].

هذا من حيث التكوين الخلقي...

أما المقياس المتمم لمقياس الفطرة في الإنسان لتحقيق الفهم الصحيح للإسلام فهو مقياس الربانية وهذا من حيث التكوين الشخصي.

ومعناه أن يكون الإنسان بعقيدته وتفكيره وسلوكه مقياساً للحق مثلما كان بفطرته من البداية...

والربانية هي استفاضة صفة العبودية لله عز وجل في واقع المسلم، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم – في الحديث القدسي – : (ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها)([66]).

ومما لا شك فيه أن العبد عندما يصل إلى مرحلة أن يسمع بالله ويبصر بالله فإنه يقيناً سيكون دليلاً على الحق.

وقيمة الوصول إلى مرحلة الربانية في الفهم هي تفادي أثر التناقض أو المفارقة بين الحق الإسلامي وبين التكوين الشخصي للإنسان باعتبار أن التفكير العقلي أثر لهذا التكوين الشخصي.

وعندما يكون هذا التناقض يحدث الخطأ في الفهم إذ يصبح تفكير الإنسان من منطلق متناقض مع الإسلام.

---

[66] البخاري في (11/340) عن أبي هريرة.

فإذا كانت صفة الجبن مثلاً هي موضوع التناقض بين التكوين الشخصي والحق الإسلامي فسيكون الاستدلال عند هذا الجبان متجها نحو إثبات صواب كل ما يتفادى به الخطر والمخاوف، وهكذا...

ومن هنا تأتي قيمة الربانية بمعني التوافق بين التكوين الشخصي للإنسان، والحق في الإسلام، كما تأتي بمعني الحكمة.

ولهذا جاء في تفسير ([67]) قول الله: (وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) [سورة آل عمران الآية: 79].

قول ابن عباس: ربانيين أي حكماء علماء حلماء.

وقول سعيد بن جبير: ربانيين أي حكماء فقهاء.

وقول عبد الله بن مسعود: ربانيين أي حكماء أتقياء.

وواضح أن الحكمة هي القاسم المشترك في كل المعاني التي جاءت في تفسير معنى الربانية. ولذلك يربط الإمام الشاطبي بين معنى الربانية والحكمة فيقول في كتاب الموافقات بعد كلام: (ويسمي صاحب هذه المرتبة الرباني والحكيم والراسخ والفقيه والعاقل، وكذلك ارتباط معني الربانية بمفهوم الدعوة، ارتباطاً واضحاً من النص القرآني: (وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) [سورة آل عمران الآية: 79]. والذي يفسره قول علي بن أبي طالب: الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربوهم عليها ([68]).

وقول ابن القيم: (وجهاد النفس أربع مراتب:

1) أن يجاهدها على تعلم الهدي.

2) أن يجاهدها على العمل بعد علمه.

3) أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه.

---

[67] أنظر تفسير ابن كثير للآية.

[68] الرسائل الكبرى للإمام ابن تيميه.

4) أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فان السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمي (ربانياً) حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه ويدعو إليه، فمن علم وعمل فذاك يسمي عظيماً في ملكوت السموات). وبعد تقرير قيمة الربانية أو الحكمة في فهم الإسلام يبدأ تحديد منهج الوصول بالمسلم إلى تلك المرحلة، وهو منهج التربية.

منهج التربية:

ومنهج تربية الدعاة هو التوجيهات المرتبطة بمرحلة الإعداد لأصحاب الدعوة. ويتحدد من ناحيتين: ناحية علمية وهي أن أحكام هذا المنهج مرتبطة بالأحكام التي بدأت بها الدعوة باعتبار أن مرحلة الإعداد هي البداية الطبيعية للدعوة كما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وناحية شرعية: وهي أن أحكام هذا المنهج نوافل وليست فرائض إذ أن الفرائض تكليف عام لا يجوز فيه تخصيص مسلم داعية في مرحلة إعداد دون غيره من المسلمين.

وكون أحكام هذا المنهج ليست فرائض. فإن لذلك قيمة تربوية. وهي تحقق الرغبة الذاتية في الطاعة التي لا تقف عند حد التكاليف الشرعية المفروضة. وهذا أمر مفترض في الدعاة.

كما أن النوافل هي السبب الشرعي الذي يتحقق به حب الله للعبد. بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن الله عز وجل: (ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...)

وفي حديث آخر: (إذا أحب الله عبداً نادي جبريل: أن يا جبريل: إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل أهل السماء: يا أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم ينادى أهل السماء: يا أهل الأرض إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبوه ثم يوضع له القبول في الأرض)([69]). وهذا أهم ما يتحقق لصاحب الدعوة وهو أن يكون القبول موضوعاً له في الأرض لأن هذا يعني أن يتحقق القبول لدعوته كذلك.

وتبدأ أحكام منهج التربية كما بدأت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[69] البخاري مختصراً (11/340) ومسلم (2637) عن أبي هريرة.

أولاً؛ التهجد: وهو من أول ما أمر الله به نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) [سورة النمل الآيات: 1 - 4].

وفيه لتكوين عدة عناصر:

الإخلاص: وهو أن يبتغي الداعية بدعوته وجه الله سبحانه وتعالي، والممارسة العلمية التي تنشئ الإخلاص في نفس المسلم هو أن يعمل عملاً لا يراه فيه أحد من البشر، وكلما كان هذا العمل الخفي فيه جهد كلما كان أكثر حماية من الرياء وتثبيتاً للإخلاص، إذ أن الرياء أقرب إلى الإنسان في العمل الخفي المجهد.

التميز: وهو ضرورة شخصية للداعية. لأن الشعور بالتميز هو الذي يعطي من تفرد وتميز بالعزم والقوة.

والتهجد مصدر أساسي لهذا الشعور حيث أن هذه الصلاة لا يقوي عليها إلا من تفرد وتميز بالعزم والقوة.

وكما أن التهجد شعور بالتميز فهو في نفس الوقت حماية من الغرور لأنه تميز من خلال عبادة الله عز وجل.

وقد قصد النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤكد شعور التميز من خلال صلاة العشاء فأخرها إلى أن قال عمر: يا رسول الله نامت النساء ونامت الأولاد. فقال رسول الله: (ابشروا، إنه لا يصلي في هذا الوقت على وجه الأرض أحد غيركم)([70]).

فوضح أن تميز الصحابة بالصلاة في وقت لا يصلي فيه أحد غيركم كان هدف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تأخير الصلاة.

وصلاة التهجد بوقتها من الليل تحقيق لهذا الهدف.

الإرادة: وهي نوعان في الإنسان، إرادة البدء: وشواهد هذا النوع أنك قد تجد صعوبة في أن تجعل إنساناً يبدأ عملاً ولكنه بمجرد أن يبدأ يسهل استمراره.

وإرادة الاستمرار: وشواهد هذا النوع أنك لا تجد صعوبة في أن تجعل إنساناً يبدأ عملاً ولكنه بمجرد أن يبدأ لا يلبث أن يتوقف.

[70] البخاري (2/49) ومسلم رقم (638) عن عائشة.

وصلاة التهجد معالجة لنوعي الإرادة: البدء والاستمرار، وهذه المعالجة تتم من خلال كيفيتين ثابتتين لها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كيفية لمعالجة إرادة البدء وهي الواردة عن ابن عباس: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعة)([71]).

حيث نجد في هذه الكيفية ست بدايات يتم من خلالها تربية الداعية على إرادة البدء.

وكيفية لمعالجة إرادة الاستمرار وهي الواردة عن عائشة: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي أربعاً لا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم أربعاً لا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً)([72]).

حيث نجد في هذه الكيفية طول الصلاة ليتم من خلالها تربية الداعية على إرادة الاستمرار.

الاتزان النفسي:

والتهجد يحقق في الداعية صفة الاتزان النفسي في ظروف الاستضعاف التي قد تفقد الداعية تلك الصفة لأن الاستضعاف شعور بالضعف وقلة حيلة وهوان على الناس وهي أمور قد تحيط بالمستضعف فتدفعه إلى محاولة الإفلات من هذا الشعور والتخلص من هذا الحال فلا يتحرك بمقتضيات المرحلة بل يتصرف برغبة الإفلات والتخلص.

ولذلك كانت الصلاة هي التوجيه الأساسي لتحقيق صفة الاتزان لأن الصلاة هي التي تصب في كل كيان المستضعف الإحساس بذاته ومكانته في هذا الوجود فتتم معالجة الآثار الناشئة عن حال الاستضعاف وذلك في قول الله عز وجل: (كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ) [سورة النساء الآية: 77].

ثانياً؛ الصيام:

ويشترك مع التهجد في معالجة الإرادة ولكن من حيث الأصل.

[71] البخاري (287 /1) ومسلم رقم (763) عن ابن عباس.
[72] البخاري (3/33) ومسلم رقم (738) عن عائشة.

إذ أن أصل الإرادة في الإنسان هي إرادة بدليل أن تجربة الإرادة والعزم التي خاضها آدم في الجنة كانت إرادة امتناع: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ) [سورة البقرة الآية: 35].

وإرادة الامتناع في الإنسان إرادة مطلقة ولهذا تقوم الأحكام الشرعية على أن يكون (الأمر) بقدر الاستطاعة أما (النهي) فهو مطلق في وجوب الانتهاء عنه.

بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)([73]).

وبهذا يصير الامتناع (النهي) مقياساً مطلقاً للإرادة غير (الأمر) المقيد بحد الاستطاعة.

ثالثاً: الإنفاق:

وضرورته في تكوين الداعية هي حمايته من صفة البخل وكسبه لصفة الكرم حيث يتحقق له من خلال ذلك حمايته من صفة الجبن وكسبه لصفة الشجاعة.

وذلك لأن الجبن والبخل صفتان متلازمتان في الطبع الإنساني، وكذلك صفة الشجاعة والكرم، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وغلبة الدين وقهر الرجال)([74]).

رابعاً: الذكر:

ويحقق في التكوين الشخصي للداعية عدة عناصر:

اكبار الله عز وجل... وهو توجيه مهم لصاحب الدعوة في مواجهته للجاهلية بضخامتها وإمكانيتها، ولهذا كان من التوجيهات الأولية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) [سورة المدثر الآيات: 1 - 3]

- الانشغال بالله... وهو من أهم مقتضيات الدعوة إذ أن الداعية الصادق هو الذي يعيش بدعوته كل لحظات حياته... وذكر الله باعتبار كثرته وإطلاقه من التوقيت

[73] البخاري (13/251) ومسلم (1337) عن أبي هريرة.
[74] البخاري عن أنس (11/178) ومسلم (2706).

المحدد: (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ) [سورة الأحزاب الآية: 35] فإنه يحقق الانشغال بالدعوة من خلال الانشغال بالله عز وجل.

- الاطمئنان القلبي... وهو ضرورة لمواجهة الشدائد التي تنتظر كل داعية في طريقه: (أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [سورة الرعد الآية: 28]

- وفي الذكر حماية للداعية من الآثار الذهنية المترتبة على الشعور بالتناقض بين التصور الذي يعيش في ذهن المسلم وبين الواقع الجاهلي الذي يعيش فيه المسلم.

والإنسان بطبيعته يحاول التخفيف من وطأة التناقض بين تصوره وواقعة بخيال ذهني يترتب عليه أكبر ضرر يقع على عقله.

والذكر باعتباره استيعاب للطاقة الذهنية بصورة شرعية صحيحة فإنه يحمي هذه الطاقة من أن تبدد في خيال يبعد عن الواقع ويضعف التفكير ويقلق النفس ويجمد الحركة.

وبالالتزام بمنهج التربية وتحقيق صفة الربانية يكون المسلم الحكيم... وتنشأ دلائل الحكمة في أسلوب الدعوة من خلال سلوك الدعاة وتصرفاتهم السليمة ومواقفهم الصحيحة.

وأبرز هذه الدلائل: هي أن يصبح المسلم الحكيم بذاته دليلاً على الحق. مثل عمر الذي وافقه الله سبحانه وتعالي على رأيه، إذ يقول: (وافقت ربي - أو وافقني ربي - في ثلاث: في الحجاب، وتحريم الخمر، وأسري بدر)([75])

وبلغ عمر حد النصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيحته، وذلك عندما رأي أبا هريرة يقول: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة. فيضربه في صدره ويذهب به لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيجد أن رسول الله هو الذي أمره بذلك. فيقول في أدب: يا رسول الله، إذن يتكلوا، فيستحب الرسول لنصحه ويقول إذن يتكلوا... ومنع أبا هريرة، من أن يقول الكلمة ([76]).

ومثلما حدث من سعد بن معاذ عندما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في يهود بني قريظة بعدما غدروا في غزوة الأحزاب. فقال: تقتل مقاتليهم وتسبي زرايهم،

[75] البخاري في المناقب (8/168) ومسلم رقم (2399) عن عمر موقوفاً.
[76] البخاري في الإيمان ومسلم (31) في الإيمان أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حكمت بحكم الله فوق من فوق سبع سموات)([77]).

ومن دلائل الحكمة أن يستطيع المسلم الحكيم تجريد النص من الخطأ في الفهم أو التحريف في الكلم.

مثلما قال علي بن أبي طالب في الخوارج عندما رفعوا المصاحف على أسنة الرماح وقالوا نريد حكم الله، فقال: (كلمة حق يراد بها باطل)([78]).

ومن دلائل الحكمة صفة التلقائية في الفهم. مثلما حدث من أبي ثمامة عندما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ([79]) فذهب إلى قومه وقال: لقد أسلمت... ولن تأخذوا حبة قمح حتى يأذن لكم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأدرك بإسلامه أن هذا يعني الولاء وأن الولاء يقتضي أن لا يتصرف في أمور حياته حتى لو كانت حبة قمح حتى يأذن في ذلك من أعطاه ولاءه.

ومن دلائل الحكمة. ذاتية التصرف. مثلما حدث من أبي بصير الذي أعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة بعد معاهدة الحديبية التي نصت على أن يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مسلم يأتي إليه من قريش. فأصبح مسلماً ليس له صلة بقيادته ولا تملك له قيادته أي توجيه، فيتصرف تصرفه الذاتي الصحيح الذي كان سبباً مباشراً لإلغاء نص إرجاع المسلمين إلى قريش في المعاهدة.

يقتل من كان معه من مشركي قريش في طريق الرجوع بعد أن يخدعهم...

ويحتل موقعاً بين مكة والمدينة ويقطع على قريش طريقها. فيسمع به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: (مسعر حرب لو كان معه رجال)([80]) فيسمع بقول رسول الله كل من أسلم من قريش فيذهب إليه، ويشترك معه، وتقوم حرب ([81]) تبعث بعدها قريش إلى رسول الله ترجوه أن يمنعهم وتطلب بنفسها إلغاء ما اشترطته في المعاهدة.

أما دلائل الحكمة من الناحية الأخلاقية فقد ورد فيها عدة نصوص منها:

---

[77] البخاري (7/411) ومسلم رقم (1768) عن أبي سعيد.
[78] مسلم رقم (1066) موقوفاً علي علّي رضى الله عنه.
[79] راجع قصته من سيرة ابن هشام (4/162).
[80] قطعه من حديث طويل أخرجه البخاري (5/329).
[81] تماثل في أسلوبها ما يطلق عليه الآن حرب العصابات.

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة والين قلوبا)([82]) فصارت رقة الفؤاد ولين القلب هي المرجع الأخلاقي للإنسان الحكيم.

وقولهم: الحكمة هي: (ضبط النفس والطبع على هيجان الغضب)([83]).

وقولهم: (الحكمة هي المواضع).

حيث سيكون المسلم الحكيم برقة القلب ولين الفؤاد متجهاً نحو تحقيق غايته بروح المسالمة والمصالحة.

وسيكون بضبط النفس والبعد عن الغضب في حماية من أي تفكير انفعالي أو قرار انتقامي أو أسلوب أهوج...

أما صفة التواضع فهي أهم الصفات الأخلاقية التي سنخرج بها من مرحلة الفتنة، حيث أنها صفة الباحث عن الحق.

وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكبر هو بطر الحق وغمط الناس)([84]) والكبر هو الصفة المقابلة للتواضع ولذا لزم التركيز على هذا الخلق في تحديد دلائل الحكمة.

ومن هنا كان الربط بين التواضع والحكمة في قول الله عز وجل: (وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً 37 كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا 38 ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا) [سورة الإسراء الآيتان: 37 - 39].

وكما قررنا في تحديد معنى الربانية أن أي مفارقة أو تناقض بين الإنسان وطبيعة المنهج تنشئ (الخطأ) في الفهم، نقرر أن أي مفارقة أو تناقض بين العلاقات الإنسانية في مجال الدعوة هي التي تنشئ (الخلاف).

لما كان التواضع هو الشعور الشرعي عند المسلم بذاته وبغيره من المسلمين أصبح يمثل الأساس الأول في مهمة إنشاء العلاقة الفكرية الصحيحة في مجال الدعوة.

---

[82] سبق تخريجه رقم (7).

[83] تاج العروس للزبيدي.

[84] مسلم في الإيمان رقم (91) عن ابن مسعود.

وإذا كانت كل صفات الحكمة تحقق في النهاية صفة التواضع فإن ما يحفظها بعد تحقيقها عدة وصايا أهمها:

كراهية المدح وفيه جاء قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احثوا في وجوه المداحين التراب)([85]) حتى لا يكون للمادح أي تكريم أو تقدير في نفس من يسمع المداح، لأنه بمقدار تكريم المادح يكون نقص من يسمع مدحه.

وقد جاء في باب ما يكره من التمادح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال لرجل يمدح أخاه (ويحك، قطعت عنق صاحبك)([86]).

ولقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم أدنى تجاوز للشعور بالنفس حتى أنه عندما سمع رجلاً يطرق الباب فقيل له من؟ فقال: أنا، فعرف الغضب في وجه رسول الله، وقال: (أنا أنا)([87]) فأصبح من صفة التواضع أن الإنسان يعرف الناس بنفسه ولا يفترض أن أحداً يعرفه دون أن يعرف هو بنفسه.

وحب التميز في الإنسان هو المدخل إلى الكبير، ومعالجة هذا الخطر تتحقق بتوجيه حب التميز إلى الآخرة ودليل تلك هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير في اليوم مائة مرة كانت له حرزاً من الشيطان، و لم يأت أحد يوم القيامة مثله إلا رجل زاد عليه)([88])

كما تتحقق الحماية من حب التميز بأن تقرن الأمور التي يري فيها الإنسان تميزاً بمسئولية ذلك التميز مثل ميزة الإمارة التي قال فيها رسول الله عليه وسلم: (إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة)([89]) وقال: (إنها أمانة وإنها يوم القيامة حزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدي الذي عليه فيها)([90]).

---

[85] مسلم رقم (3002) من حديث ابن عمر.

[86] البخاري (5/274) ومسلم رقم (3000) عن أبي بكرة.

[87] البخاري (11/35) ومسلم رقم (2155) من حديث جابر.

[88] البخاري (13/125) ومسلم (2691) عن أبي هريرة.

[89] البخاري (13/25) عن أبي هريرة.

[90] ومسلم رقم (1825) في الإمارة عن أبي ذر.

ولذا كان من أساليب التربية ذكر المسئولية التي تقع على المسلم إذا كان هناك اضطرار لذكر ميزته مثلما حدث من الراهب مه الغلام في قصة أصحاب الأخدود عندما قال له (أي بني قد أصبحت أفضل مني؟ فقال له بعدها: وإنك ستبتلي)([91]).

وبجانب قاعدة ذكر الميزة نذكر ما يقابلها وهي قاعدة النقد وفيها يجب عند ذكر الخطأ أن نذكر قيمة الإنسان المخطئ حتى لا يكون في ذكر الخطأ أو التقصير فقدان لثقته بنفسه مثلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد الله بن عمر: (نعم العبد عبد الله... لو كان يقوم من الليل)([92]) وبذلك لا يكون ذكر الميزة سبباً للغرور بالنفس ولا يكون ذكر الخطأ سبباً لفقدان الثقة بالنفس.

وبنفس المنطق يأتي الحديث الذي رواه البخاري (كاد الخيران يهلكا) أبو بكر وعمر رضى الله عنهما رفعا أصواقمما عند النبي صلى الله عليه وسلم فنلاحظ وصفهما (الخيران) قبل ذكر (أن يهلكا).

[91] مسلم رقم (3005) عن صهيب.
[92] البخاري (7/89) ومسلم (2479)

الفصل الخامس
ضرورتان

وبعد أن بدأنا إنشاء الواقع الصحيح للدعوة بتكوين الجماعة المسلمة وإحكام الفكر وتكوين الفرد المفكر يبقي أمران ضروريان لتمام مهمة إنشاء هذا الواقع.

أولهما؛ تحديد علاقة هذه الجماعة المسلمة بالواقع التاريخي للدعوة:

وهذا التحديد شرط عملي هام لكي تكون هذه الجماعة امتداد صحيحاً للواقع التاريخي للدعوة وذلك بأن تجتمع فيها كل تجارب الدعوة السابقة... وهذا ما يتحقق بربط الجماعة القائمة بالواقع التاريخي برباط التجربة.

وفي ذلك تحقيق لأهم مقتضيات الحكمة حيث جاء في تعريف الحكمة علاقتها بالتجربة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لكل حليم عثرة ولكل حكيم تجربة)([93]) ولقولهم في تعريف الحكمة: (رجل حكيم أي رجل أحكمته التجارب).

- والأخذ بالتجربة من أهم ضرورات المواجهة مع الجاهلية لسبب عملي واضح وهو أن الجاهلية تجربة واحدة بدأها إبليس بمعصيته واستكباراً وسيظل قائماً عليها إلى يوم البعث.

وهذا معناه أن الجاهلية تاريخ واحد وأن المواجهة من جانبها للإسلام قائمة بخبرة تاريخية كاملة ن ولنا أن نتصور بتلك القاعدة مدي التطور الجاهلي في المواجهة عندما يكون العامل الزمني الذي تتطور به هو هذا التاريخ القديم المستمر.

والمواجهة الإسلامية للجاهلية وهي تجربة تاريخية واحدة بتجارب مبتورة معناه فقد اكبر إمكانيات القدرة الإسلامية في تلك المواجهة.

ولهذا تم لقاء مباشر بين موسى رسول بني إسرائيل وبين رسولنا عليهما الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج في السماء.

واستجاب نبينا عليه الصلاة والسلام لنصيحة أخيه موسى...

---

[93] سبق تخريجه رقم (9).

واستجاب الله عز وجل لسؤال نبينا صلى الله عليه وسلم... بالتخفيف وأصبحت الصلاة خمساً بعد خمسين ([94]).

غير أن الاستفادة الحقيقية من تجارب الدعوة السابقة رهن بالتقييم الصحيح لها فكراً وتطبيقاً.

فمن ناحية الفكر والمنهج يتم التقييم على أساس الالتزام بالكتاب والسنة والفهم السلفي لهما.

ومن ناحية التطبيق والواقع فإن التقييم يتم على أساس بلوغ حد الاستطاعة مادياً وتنظيمياً لتحقيق الهدف المحدد للتجربة.

أما التقييم الخاطئ للتجربة فهو الذي يبتعد عن جوهرها الشرعي والحركي فيفقدها أثرها في واقع الدعوة حيث يصير التقييم بالابتعاد عن جوهر التجربة مجرد كلام نظري لا يتجاوز ناحيتها الشكلية أو نتائجها المادية، وبناء على التقييم الإيماني الصحيح فإن هناك تجارب إسلامية عظيمة وإن لم يكن لها نتائج مادية في الواقع ولكنها أخذت تلك الصفة لتحقق المستوي الإيماني الكامل فيها.

وهؤلاء هم أصحاب الشجرة يبايعون النبي صلى الله عليه وسلم على القتال بصدق فيرضي الله عنهم دون أن يقاتلوا: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) [سورة الفتح الآية: 18].

وإذا كان من الطبيعي أن يكون لكل تجربة خطؤها فإن التقييم الصحيح هو الحد الفاصل بين الخوف من الخطأ الذي يجعلنا نبذل أقصي الجهد لتحقيق صواب العمل وبين الخوف الذي يترتب عليه توقف العمل.

وبذلك فغن التقييم الصحيح للتجربة هو الذي يضع المسلم في سبيل ميسر للعمل الصحيح بعد أن ينفض عنه غبار الخطأ ويعيد إليه دافع الاستمرار مردوداً بتجربة ماضية ليخوض بها تجربة مقبلة.

وإذا كان من الطبيعي – كذلك – أن يكون لكل تجربة خطؤها فإن التقييم الصحيح هو الذي يرتفع بحقيقة الاخوة مرهونة بصواب أو مفقودة بخطأ طالما أن قيام

[94] البخاري في قصص الإسراء (1/458) ومسلم (163) عن أبي ذر.

التجربة كان في حدود الإيمان الصحيح، ويسعنا في ذلك قول الله عز وجل: (رَّبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [سورة الحشر الآية: 10].

وتقييم التجارب الإسلامية السابقة علينا لمجرد إضافة خبرة أو زيادة معرفة ولكنها اعتراف للخير من أصله ن لأن أي تجربة حدثت في مجال الدعوة هي أحداث سبقنا بها دعاة نحن نليهم في استمرار الدعوة.

والخير على مستوي تاريخ هذه الأمة مرتبط بصفة السبق الزمني بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)([95]).

وصفة السبق الزمني هي التي تعطي للأحداث صفة التجربة.

وهذه مقارنة قرآنية بين فترة ما قبل الفتح وما بعده من خلال الإنفاق والقتال وذلك في قول الله: (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [سورة الحديد الآية: 10].

وما سبق يحدد قيمة التجربة على المستوي التاريخي للدعوة.

يبدأ بعده تحديد قيمة التجربة على المستوي الفردي وأثر التجربة في الداعية بصفة شخصية من خلال عدة نقاط.

أولاً: أن التجربة أساس للتربية: ولذلك رعي كل الأنبياء الغنم قبل ممارسة الدعوة ليتزودوا من خلال تجربة الرعي بصفة السكينة والوقار.

ولعلنا ندرك قيمة الإنسان وخطورة التعامل معه في مجال الدعوة بدون تجربة، من خلال تزود الأنبياء بتجربة رعي الغنم قبل التعامل مع البشر.

ثانياً: أن التجربة مصدر للثقة، ولذلك جعل الله موسى يخوض تجربة العصا عندما تصير حيه في الوادي المقدس. قبل أن يذهب إلى فرعون: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) [سورة طه الآية: 17 - 20]

[95] البخاري (5/258) ومسلم (2535).

ورغم أن موسى ذهب إلى فرعون مزوداً بتلك التجربة فإنه في موقف المواجهة أوجس في نفسه خفية فما بالنا لو ذهب بغير تلك التجربة.

ثالثاً: أن التجربة ضرورة لليقين: لأن التجربة واليقين يلتقيان في الواقع إذ أن الواقع هو مجال التجربة ومصدر اليقين ولذلك كانت رؤية زكريا لمريم في تجربة ملموسة للرزق بغير حساب هي مصدر يقينه بإمكانية أن يرزق الولد بعد أن اشتعل رأسه شيباً: (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَاب * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء) [سورة آل عمران الآية: 38: 37].

رابعاً: أن التجربة ضمان للصواب: ولذلك يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم الحذر من معاودة الخطأ إذا حدث بالاستفادة من أي تجربة خاطئة فيقول: (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين)([96]).

الثانية؛ العلاقة بين الجماعة المسلمة والمجتمع الجاهلي:

بمجرد قيام الجماعة المسلمة تنشأ مشكلة العلاقة بين تلك الجماعة والمجتمع الجاهلي الذي نشأت فيه، وهذه المشكلة مرتبطة في منهج الدعوة بثلاث قضايا:

أولاً: قضية وجود المسلم في المجتمع الجاهلي، والأصل في هذه القضية هو النتيجة العلية لهذا الوجود وليس الوجود ذاته، فإذا غلب على هذا الوجود معنى الإقرار للجاهلية كان خطأ.

وإذا غلب على هذا الوجود معنى الإنكار على الجاهلية كان صواباً.

وتنتفي صفة الإقرار عن وجود المسلم للجاهلية بالاستضعاف.

وتثبت له صفة الإنكار بالانتماء إلى الجماعة المسلمة واعطائها الولاء...

وهذا من حيث الموقف كما تثبت له صفة الإنكار بممارسة الدعوة وما تقتضيه من إنكار لأي منكر وبراءة من كل باطل... وهذا من حيث السلوك، وثبوت الإنكار على الجاهلية بالانتماء للجماعة وممارسة الدعوة هو الأصل في إنكار، أما الاعتزال فهو تصرف اضطراري يثبت الإنكار بعد اليأس من الاستجابة للدعوة.

[96] البخاري (10/529) ومسلم رقم (2998) عن أبي هريرة.

إذ لو كان الاعتزال هو الأصل في معنى الإنكار لتقرر على المسلم بمجرد دخوله الإسلام، وانتفي معنى الدعوة، والتحديد العملي لضرورة الاعتزال يؤكد أن الاعتزال أصلاً إنما يكون للمنكر وليس للناس في ذاهم، إذ أن الناس هم موضع الدعوة، بدليل قول الله عز وجل: (أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) [سورة النساء الآية: 140].

والأمر بالاعتزال كما هو واضح من الآية معلق بحال الاستهزاء بالآيات، وبمجرد انتهاء حال الاستهزاء يكون القعود للدعوة.

ويظل اعتزال الناس معلق بحال المنكر الفعلي إلى أن يثبت على هؤلاء الناس استحالة مفارقتهم للمنكر فتصبح حياهم بصفة دائمة مثل حال وقوعهم في المنكر الذي يجب اعتزالهم فيها، فيتقرر الاعتزال بصفة دائمة.

وتأتي كل آيات الاعتزال لتثبت أن الاعتزال إنما يكون باعتبار ما عليه الناس من منكر وليس للناس أصلاً.

(وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ...) [سورة مريم الآية: 48]، (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...) [سورة الكهف الآية: 16].

ثانياً: قضية تقييم المسلم للمجتمع الجاهلي:

وقيام الجماعة المسلمة يفرض على المسلم تقييم هذا الواقع الذي قامت فيه، لأن التصور الذي لا يصل بصاحبه إلى حد تقييم الواقع لا يصل غلي حد الكمال والصواب.

وتقييم الجماعة المسلمة للواقع الجاهلي له أساسان:

- أساس عقيدي يقوم به وجود الجماعة في هذا الواقع.

- أساس حركي تتم به مواجهة الجماعة لهذا الواقع.

أما عن التقييم العقيدي فإنه يعد من أبعاد التصور الإعتقادي الذي قامت به الجماعة، وهؤلاء هم فتية الكهف يقول الله فيهم: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) [سورة الكهف الآيات: 13 - 15]، وواضح من النص أن إعلان عقيدهم بقولهم: (رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ) تبعه تلقائياً: (هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً) وهو تقييم لواقع قومهم بمقتضى تصورهم، وقيمة تقييم الواقع الجاهلي لا تنتهي عند اعتبارها شرطاً لصحة الاعتقاد الإسلامي ولكنها كذلك تكليف شرعي كلفنا الله به باعتبارنا شهداءه سبحانه في الأرض بدليل قوله عز وجل: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [سورة البقرة الآية: 143]، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنتم شهداء الله في الأرض)([97]) وإذا كان الإحكام أساس لمعني الحكمة فإن ذلك يقتضي ألا تطغي مهمة الشهادة أو الحكم على الناس على مهمة دعوتهم وغاية هدايتهم.

كما تقتضي عدم تجاهل مهمة التقييم والحكم والشهادة في واقع دعوتنا لهؤلاء الناس.

وبذلك يتقرر بمقتضى الحكمة أن نكون (دعاة وشهداء) في إحكام بين المهتمين.

وأما عن التقييم الحركي فمن خلاله يتحدد أسلوب المواجهة المباشرة مع الجاهلية.

فالدعوة الإسلامية لا تتحرك في فراغ... والجاهلية ليست وضعاً ساكناً، ولكنه وضع يملك كل خصائص الحركة وإمكانيتها... والعلاقة بين الإسلام والجاهلية يرسمها خط مشتعل للتضاد الحركي بينهما.

فالجاهلية دعوة بدليل قول الله: (أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ) [سورة البقرة الآية: 221]، وقول الله: (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) [سورة غافر الآية: 42، 41].

والجاهلية تأثير وتأثر: (هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) [سورة القصص الآية: 63]، وهكذا يكون الاستمرار.

والجاهلية التزام وتمسك (قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء) [سورة هود الآية: 87]

فأصحاب الجاهلية يعتقدون أنه لا حق لهم في التصرف في أموالهم كما يشاءون، فهناك النظام الذي يجب اتباعه...

---

[97] البخاري (3/288) ومسلم (9499 من حديث أنس.

والجاهلية إصرار ومفاصلة: (وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ) [سورة البقرة الآية: 217]، (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) [سورة إبراهيم الآية: 13].

والجاهلية حركة لقول الله: (أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) [سورة ص الآية: 6]، (وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ) [سورة آل عمران الآية: 176]، (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ) [سورة البقرة الآية: 205].

والجاهلية قتال وانفاق: (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ) [سورة النساء الآية: 76]، (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) [الأنفال الآية: 36].

تلك هي خصائص الجاهلية التي تسيطر بها على الإنسان...

وهذه قريش تشترط على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيد إليها كل من أسلم. حتى جاء أبو جندل مسلماً فأعاده المسلمون التزاما بالمعاهدة ن فيأخذه المشركون مقيداً بالحديد.

وتبعث في أثر المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لتعيدهم إليها. ويقدمون الهدايا إلى قساوسة النجاشي ملك الحبشة من أجل ادعائهم.

وتزاحم قريش النبي صلى الله عليه وسلم في مواسم الحج لتقاوم دعوته بعد أن رأته يدعو الناس.

وهذا أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة يسبقان النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمه في لحظات موته فيحاول النبي صلى الله عليه وسلم أن ينطقه الشهادتين فتنشأ لحظات الصراع في لحظات الموت من أجل التأثير علي أبي طالب. فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عم قل: لا إله غلا الله أشهد لك بها عند الله) فيقول أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب([98]).

[98] البخاري (3/22) ومسلم رقم (24) عن المسيب بن حزن.

وهذا حاكم ([99]) كافر يبعث رسالة إلى فرد مسلم قاطعته الجماعة لأجل خطأ وقع فيه، فيقول له فيها: لقد علمنا أن صاحبك قد جفاك... ما جعلك الله في دار هوان فأت إلينا نكرمك!([100]).

سبحان الله... حاكم دولة كافر يطلب فرداً مسلماً في توقيت خطير ليؤثر عليه ويفتنه.

صراع على الإنسان... مزاحمة في المكان... وملاحقة في الطرق... مطاردة في الأرض تربص وترصد... مراقبة وتتبع.

هذه بعض ملامح الصراع والتي لا تزال قائمة... بل تزداد.

ولعل هذه الملامح تكون واضحة لأصحاب فكرة التربية النظرية الهادئة...

هؤلاء الذين يتخيلون توقف الحركة الجاهلية... ويطفئون في إحساسهم اشتعال الصراع ويفترضون أن الجاهلية ستتركهم يربون جيلاً إسلامياً، وينشئون تجمعاً قوياً.

ولعل الخطأ الأساسي عند أصحاب هذا الفهم هو:

الظن بأن الصراع بين الجاهلية والإسلام يرجع إلى التوقع الجاهلي بأن الإسلام يريد السيطرة فيتخيلون أن الابتعاد عن محاولة الوصول للسلطة هو الذي سيعطي للمسلمين فرصة الوجود، وكمعالجة لهذا الإحساس الجاهلي. فإنهم يبدأون التجمع بعيداً عن قضية الجهاد. مرتكزين في منهجيتهم على التربية الفردية والتبليغ بالكلمة.

وهذا الظن خاطئ لأن الصراع بين الجاهلية والإسلام يرجع إلى رفض الإسلام ذاته حتى لو تمثل في صورة فردية مجردة من أي قوة.

والقرآن يبين أن الرفض الجاهلي للوجود الإسلامي سيكون في غاية القسوة حتى لو كان هذا الوجود في أبسط صورة.

فيقول الله عز وجل: (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) [سورة الجن الآية: 19]، والصورة المرفوضة هنا هي أن عبد الله قام يدعو الله...

[99] ملك دولة غسان.

[100] كعب بن مالك.

وهذا يعني أن المواجهة مفروضة على المسلم بمجرد إسلامه.

ويعني كذلك رفض أي مساومة جاهلية على المواجهة الكاملة بوجود مجرد من هدف الوصول للسلطة قد تسمح به الجاهلية بصفة مرحلية لتضمن عدم المواجهة. ثم تتمكن بعد ذلك من إنهاء هذا الوجود، لأن الجاهلية تعلم يقيناً أن هذا الوجود المسموح به مرحلياً ليس له أي قيمة إسلامية. بل إنه إضافة جديدة للتمكين الجاهلي حيث يبرز هذا الوجود الخاضع ابتداء حجم التسلط الجاهلي.

واعتبار هذا الوجود المجرد من صفة المواجهة مرحلة من مراحل الدعوة ليس من الحكمة لأن المرحلية تصور يحكم دافع المواجهة في ضمير كل مسلم.

فلهذا تأتي نصوص المرحلية معبرة عن توجيه دافع قائم، مثال قول الله: (كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ) [سورة النساء الآية: 77] حيث أن الأمر بالكف يثبت وجود الدافع.

وحقيقة المواجهة ليست رهناً بقوة الجماعة، إذ أنه من الممكن أن تتأكد مع الاستضعاف في صورة السرية باعتبارها صورة من صور المواجهة.

إذن فعلاقة صفة المواجهة بصفة المرحلية تتعلق بصورة المواجهة حسب مرحلة الدعوة ولكنها لا تعني انعدامها في أي مرحلة من تلك المراحل...

الفصل السادس
منهج الدعوة

وتحديد منهج الدعوة من خلال مفهوم الحكمة له مقدمة أساسية وهي الإحكام وقد سبق قول ابن القيم في الدرجة الأولى من الحكمة: (أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حده ولا تعجله عن وقته) قوله: (و لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها شرعاً وقدراً ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها ولها أوقات لا تتقدم ولا تتأخر كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره ولا تتعدى بها حدها فتكون متعدياً مخالفاً لله ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة ولا تؤخرها عنه فتفوتها فالحكمة إذن فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي وتلك هي الحدود الأساسية للعمل الإسلامي).

1) ضرورة العمل.

2) صيغة العمل.

3) وقت العمل.

بحيث تتم هذه الحدود من خلال الإحكام بين جوانب مفهوم الحكمة.

وتحديد منهج الدعوة من خلال الإحكام بين جوانب المفهوم في التطبيق يقتضي عدة أمور:

ألا تطغي مراعاة الواقع على الحق كما لا نتجاهل هذا الواقع في إحقاق الحق.

ولا نفقد في واقعنا الإحساس بالغاية، كما لا نتخيل غاية دون واقع.

ولا نبدأ بغير الوجود الصحيح للفرد المسلم، ولا ننتهي عند وجوده دون تحقيق الغاية به.

وحتى لا تطغي مراعاة الواقع على الحق...

يجب إثبات الحق في وضع المراعاة للواقع ولو بالتقرير القولي إذا لم يكن هناك القدرة على التحقيق الفعلي له، والمثال التطبيقي لهذا المبدأ هو قول رسول الله صلى الله

عليه وسلم لعائشة: (لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لهدمت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل)([101]).

فمراعاة أن القوم حديثو عهد بجاهلية لم يمنع إثبات الحق في جعل الكعبة على قواعد إسماعيل بتقرير رسول الله صلى الله عليه وسلم القولي.

ومراعاة الواقع دون إثبات الحق في جعل الكعبة على قواعد إسماعيل بتقرير رسول الله صلى الله عليه وسلم القولي.

ومراعاة الواقع دون إثبات الحق هي التي تجعل من مجرد المراعاة ذاتاً للمنهج بغير الحق.

كما لا نتجاهل الواقع في تحقيق الحق.

والمثال التطبيقي لهذا المبدأ هو ما فعلة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد غزوة الأحزاب: ذلك أن بني قريظة كانت ممن اشترك ضد النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة بعد أن تعاهدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على الأمان معه، وكانت بنو قريظة حليفة للأوس، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحاسبهم على غدرهم الذي غدروه مع مراعاة هذا التحالف القائم بينهم وبين الأنصار حتى لا يغضب الأنصار لحلفائهم... ويترتب على ذلك فتنة بين المسلمين.

فكانت الحكمة في ذلك هي أن النبي صلى الله عليه وسلم أنزل بني قريظة على حكم حلفائهم. لكي يكون الحكم متضمناً للحق الذي يجب أن يكون، وكذلك متضمناً لإنهاء التحالف الذي كان قائماً.

عن أبي سعيد الخدري قال: (نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سعد فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد قال الأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم، فقال: هؤلاء نزلوا على حكمك. فقال: تقتل مقاتليهم وتسبي ذراريهم، قال: قضيت بحكم الله، وربما قال: بحكم الملك)([102]).

ولعلنا نلحظ في الحديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم: للأنصار: قوموا لسيدكم، والسبب في ذلك هو أنه صلى الله عليه وسلم يريد أن يثبت له السيادة عليهم ليكون حكمه هو حكم الأنصار جميعهم.

---

[101] البخاري (1/224) ومسلم رقم (1333) عن عائشة.

[102] سبق برقم (63).

ولا نفتقد في واقعنا الإحساس بالغاية والعاقبة لنرتفع فوق مشقة هذا الواقع وعقباته، هؤلاء هم صحابة رسول الله يطلبون منه الدعاء بالنصر في فترة الاستضعاف فيقول: (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من مكة إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)([103]).

هذا نبينا عليه الصلاة والسلام يعترضه حجر وهو يحفر الخندق مع الصحابة فيضربه ضربة ويقول: (الله أكبر فتحت الفرس) ويضربه الثانية ويقول: (الله أكبر فتحت الروم)([104]).

ثم لا نبدأ بغير الوجود الصحيح للفرد المسلم لأنه ضمان الإحكام بين مراعاة الواقع وإحقاق الحق والإحساس بالغاية. حيث أن هذا الإحكام بين هذه الأمور هو البصيرة التي جاءت في قول الله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة يوسف الآية: 108].

وفي العموم فإن أخذ هذا الدين بكل جوانبه هو شرط القيام به وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لن يقوم بهذا الدين إلا من أحاط بكل جوانبه)([105]).

فالبصيرة صفة ذاتية للفرد الداعية ولذلك جاء النص بلفظه (أنا) ولفظه (ومن اتبعني) حيث يفيد اللفظان ثبوت الصفة الفردية.

وبعد هذه المقدمة الأساسية يتحدد منهج الدعوة من خلال مفهوم الحكمة...

من منطلقين:

أولاً: الإحكام بين أبعاد العمل.

ثانياً: الإحكام بين مراحل العمل.

أما المنطلق الأول وهو الإحكام بين أبعاد العمل: فهو الإحكام بين مهمة التبليغ واستخدام القوة، وقيام السلطة.

---

[103] البخاري (7/164) عن خباب بن الأرت.

[104] أخرجه النسائي (6/43) من طريق أبي سكينة عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وسنده لا بأس به.

[105] عزاه السيوطي في جامعة الكبير ل (أبي نعيم) عن علي – رضي الله عنه – كما في كنز العمال (3/83).

أ) التبليغ بالكلمة: وتحقيق الحكمة فيه تقتضي ثلاثة أمور:

الأول: الإحكام بين الواقع العملي للدعوة ومهمة التبليغ.

الثاني: حكمة التبليغ.

الثالث: الصراع بالكلمة.

- الأول: أما عن الإحكام بين الواقع العملي ومهمة التبليغ:

فترجع قيمته إلى هذا الإحكام هو الذي يحمي طاقة الدعاة العلمية من أن تتبدد في تجاوز الكلمة لحدودها، لأن نسبة الطاقة العملية والكلامية في الإنسان نسبة عكسية.

وهذا معناه أن أي تجاوز للقدر الصحيح يترتب عليه مباشرة انحسار عملي في الواقع، أما دليل التناسب العكسي بين الطاقة الكلامية والعلمية في الإنسان هو هذا الموقف الذي كان فيه المسلمون على سفر فتلاحي رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال المهاجري يا للمهاجرين وقال الأنصاري يا للأنصار حتى كثر الكلام فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوقفه فسار بهم جميعاً ولم يعرس ([106]) حتى أصابهم التعب فتوقف الكلام فأمرهم أن يعسكروا بعد التعب فيقول أحد الصحابة وهو يصف الحال الذي كانوا عليه: (فما أن وجدنا مس الأرض حتى نمنا)([107])

وبذلك أنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهره الكلام باستيعاب الطاقة، ولهذا يجب أن يكون الإحكام بين الكلمة والعمل أساساً في تحديد منهج الدعوة... وتبليغ الحق ليس مجرد كلام ولكنه تصرف صحيح وتعامل سليم يتعامل به الدعاة مع الناس.

وهذا سليمان يدعو ملكة سبأ بموقفين عمليين دون دعوة مباشرة بالكلام.

وكان الموقف الأول لإثبات صفة الذكاء وقوة العقل، فإنه أخذ العرش ونكره لها ثم عرضه عليها، وسألها: (أهكذا عرشك)؟ فأجابت: (كأنه هو) فكانت أعقل إجابة: فلم تقل هو، لأنه منكر ولم تقل: ليس هو، لأنه هو.

[106] لم يسترح في سفره.

[107] أخرجه البخاري (8/648) في التفسير، ومسلم في (البر) رقم (2584) من حديث جابر بن عبد الله ورواه الترميذي وغيره والرجل المهاجري هو: جهجاه بن قيس الغفاري، والأنصاري هو: سنان بن وبرة الجهيني.

وكان الموقف الثاني لإسقاط الغرور عن نفسها: (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [سورة النمل الآية: 44]

وبإثبات الذكاء وإسقاط الغرور تمت الدعوة ودخلت في الإسلام.

وتحقيق الإحكام بين الكلمة والواقع يكون من خلال عدة أسس.

أ) التركيز الأدبي في التبليغ ويعني تحقيق أكبر تبليغ للحقائق بأبسط الأساليب بأن تسهم كل كلمة في هذا التبليغ في تأكيد وإثبات هذه الحقائق.

ومن أجل هذه الصفة أعطي الله عز وجل نبينا عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم([108]).

ومثال لتوضيح تلك الصفة في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. هو قوله: (أن المقسطين على منابر من نور على يمين عرش الرحمن يوم القيامة)([109])، فتجد أن مضمون الحديث هو الإعلاء من شأن المقسطين ونجد أن كل ألفاظ الحديث قد ساهمت في تأكيد هذا المضمون بلا زيادة أو نقصان.

(فالمقسطون على منابر) أفادت معنى التعظيم، (علي منابر من نور) فزاد معنى التعظيم (علي يمين عرش الرحمن) زادت معنى التعظيم (يوم القيامة) زادت معنى التعظيم.

ويدخل تحت صفة التركيز الأدبي. الأسلوب الاصطلاحي الذي يتم به التعبير عن المعاني الكثيرة بمفهوم واحد محدد مثال قول الرسول صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس عندما سألوه أن ينصحهم بنصحية يرجعون بها إلى قومهم فقال: (أن تؤمنوا بالله، ثم قال: أتدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: الإيمان هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان...)([110]).

ب) تحديد الأسلوب العملي لتطبيق أي حقيقة... وهذه أبرز خصائص الحديث النبوي، ومثاله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن

[108] (أوتيت جوامع الكلام) صحيح ومن أتم ألفاظه ما رواه أحمد وأبو يعلي والطبراني بسند صححه الألباني (أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه (89).

[109] أخرجه احمد بهذا اللفظ (2/250) عن أبي هريرة وأخرجه البخاري (6/128)، ومسلم رقم (523).

[110] أخرجه البخاري (1/129) ومسلم رقم (18) عن ابن عباس رضي الله عنه.

تؤمنوا حتى تحابوا)([111]) وإلى هنا يقرر الرسول حقائق ثم يقول: أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم) محدداً الأسلوب العملي لتحقيق الحقائق المقررة.

ج) رفض أي كلمة ليس لصاحبها واقع إيماني صحيح...

ولذلك يرفض القرآن شهادة المنافقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة، وذلك بقوله تعالى:(إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) [سورة المنافقون الآية: 1].

فالآية تؤكد رفض شهادة المنافقين من أجل واقعهم غير الصحيح.

ولما كان المرفوض ذاته قضية صحيحة وهي شهادة بالرسالة للرسول، فإن الآية تتضمن قبل رفضها من المنافقين لنفاقهم صحة هذه الشهادة في ذاتها وهي قول الله: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ) [سورة المنافقون الآية: 1]، قبل قوله سبحانه: (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) [سورة المنافقون الآية: 1]، فعندما تكون القضية هنا واحدة وهي الشهادة بالرسالة.

فيؤكدها القرآن بذاتها. ويرفضها من المنافقين.

فإن هذا يثبت ارتباط قضية الدعوة بصفتها المجردة بالواقع الإيماني والعمل الصحيح لأصحاب الدعوة.

- الثاني: حكمة التبليغ وتتحقق بثلاثة أمور:

أ) **<u>تصور الداعية عن مهمة التبليغ:</u>**

وهذا التصور يرتكز على عدة حقائق:

- أن الدعوة مجرد سبب في تحقيق غاية الهداية، وهذه الحقيقة تحمي الداعية من الغرور إذا تحققت الاستجابة، ومن اليأس إذا كان الإعراض.

كما أن هذه الحقيقة تحقق للداعية توازناً تجاه الناس الذين هم موضع دعوته، فلا يلاحق بالتبليغ فرداً تأكد إعراضه أو يهمل آخر لم يتم إبلاغه.

---

[111] أخرجه مسلم رقم (54) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

– إن الداعية بدعوته حجة، وهذه الحقيقة تجعل الداعية يبذل أقصي طاقته في التبليغ كاملاً وواضحاً مستغلاً في ذلك أي فرصة يراها متاحة لهذا التبليغ، كما أن هذه الحقيقة تحمي الداعية من أن يبدل أو يغير في دعوته، ودليل ذلك قول الله عز وجل: (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ) [سورة الكهف الآية: 29].

إن الدعوة نجاة للداعية نفسه وعذر له عند الله، وهذه الحقيقة تجعل الداعية يواصل دعوته بصرف النظر عن موقف من يدعوهم، ودليل ذلك قول الله: (وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [سورة الأعراف الآية: 164].

ومع كون الدعوة سبب هداية وحجة على الناس وإعذار للداعية تأتي الحقيقة الأخيرة وهي:

– أن الدعوة حرص كامل من الداعية على من يدعوهم وهذا صاحب سورة ياسين يدعو قومه فيقتلوه ويدخل الجنة وبالرغم من ذلك فإنه لا ينسي قومه الذين قتلوه ولا يخفي أمله في إيمانهم وهو في الجنة: (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ 26 بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) [سورة يس الآيتان: 27، 26].

ب) نظام التبليغ:

والأساس في نظام التبليغ هو عرض قضية التوحيد ابتداء بتبليغ كلمة لا اله إلا الله. وهى حد الإسلام وبذلك يتقرر خضوع الناس لله عز وجل ليبدأ تبليغ التكاليف الشرعية والدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذا إلى اليمن فقال: (ادعهم إلى شهادة أن لا اله إلا الله وأنى رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)([112])، ولعلنا نلاحظ في الحديث: أن مفهوم الدعوة مرتبط بالشهادتين وأن بقية الأحكام علم يقتضيه الاستجابة لتلك الدعوة، ولذلك قال في الشهادتين (أدعهم) وفي بقية الأحكام (فأعلمهم).

كما نلحظ: ارتباط التبليغ بموقف من يسمعونه، فإن كان الاستجابة يتقرر استمرار التبليغ، وإن كان الإعراض فإن التبليغ يجب أن يأخذ صورة المواجهة والمعالجة لهذا الأعراض، ولذلك اشترط الرسول صلى الله عليه وسلم الطاعة في كل قضية للانتقال إلى تبليغ قضية أخرى فقال: (فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم).

[112] أخرجه البخاري (3/322) ومسلم رقم (19) عن ابن عباس.

والبدء بتبليغ كلمة لا إله الله يقتضي تقييم الواقع الإعتقادي الذي سنتجه إليه بالتبليغ. لأن هذا التقييم هو الذي سيتحدد به قضية البدء بصورتها المباشرة، فإذا كان الواقع الذي سنتجه غليه بالتبليغ أهل الكتاب مثلاً كان البدء بتبليغ كلمة لا إله إلا الله مع تحديد المدلول الصحيح للكلمة بما ينفي أي انحراف لمدلول اللفظ عندهم.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فو الله ما سمع به يهودي ولا نصراني إلا شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن عيسي عبد الله ورسوله وأن العزير عبد الله ورسوله، إلا أدخله الله الجنة)([113]).

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يعطي تقييمه للواقع الذي سيوجه إليه الدعوة قبل أن يبعث الدعاة، ويقول: (إنك ذاهب إلى أهل كتاب...) وهكذا.

والبدء بتبليغ كلمة لا إله إلا الله سيمثل أعمق بعد اعتقادي يسهل بتحقيقه اعتناق كل أصول الدعوة، ولهذا لما جاء المشركون إلى أبي بكر الصديق وقالوا أن صاحبك قد زعم أنه أسري به. فقال: (لو قال ذلك فقد صدق، لقد صدقته في أكبر من ذلك)([114]) وهذا يعني أن التصديق في الحقيقة الكبيرة يفتح طريق التصديق أمام الحقائق الأخرى في نفس الإنسان.

وبعد تحديد نظام التبليغ بالاعتبار المنهجي، تبقي إضافة في هذا التحديد بالاعتبار العلمي وهي أن الدعوة قد تقتضي عملياً الدخول في مواجهة مع الجاهلية من خلال أي قضية غير قضية التوحيد وعندئذ يكون الموقف الإسلامي، هو قبول المواجهة حتى لا يعطي الرفض صورة العجز عنها، وقد وضحت هذه الحقيقة عندما سأل اليهود نبينا عليه الصلاة والسلام عن الروح، ولم يترل الوحي، فحزن النبي حزناً شديداً وقالت اليهود ذهب عنه شيطانه رغم أن سؤال الروح لم يكن داخلاً في حد الإسلام، ولكن تأخر الإجابة هو الذي أحزن النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحزن الشديد، غير أن قبول المواجهة يكون بعدة اعتبارات أهمها:

الحذر من أن تتضمن المواجهة في غير قضية حد الإسلام إقراراً ضمنياً لما عليه أصحاب الجاهلية من بطلان في الاعتقاد، وذلك بتأكيد أن المواجهة مدخل إلى الإسلام وليست داخلة في حد الإسلام. كذلك الانتباه غلي الهدف الجاهلي إلى جر الفكر

[113] متفق عليه: البخاري (6/474) ومسلم رقم (29) عن عبادة بن الصامت.

[114] أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق بن كيسان عن الزهري عن أبي سلمة سمعت جابراً يقول أنظر الفتح (7/199). وله طريق أخر عن معمر بن راشد عن الزهري عن عروة عن عائشة أنظر ابن كثير (4/275).

الإسلامي إلى قضايا تصرف بها العقل الإسلامي عن فكر المواجهة الصحيح، وذلك بأن تكون المواجهة بالقدر الذي يثبت قدرة الفكر الإسلامي على مواجهة أي قضية.

ج) الأسلوب المباشر في التبليغ:

- المخاطبة بقدر العقل... وهو مبدأ متفق على ضرورته والمقتضي العام للمخاطبة بقدر العقل هو البساطة والوضوح ولذلك قال علي ابن أبي طالب: حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله وعنه أيضاً: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة).

ولذلك يعتبر معاذ بن جبل رضى الله عنه: أن أي كلمة غير واضحة المعني تكون مجانبة لمعني الحكمة: وزيغ عنها. فيقول كما روي أبو داود: ([115])

وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم... قال قلت لمعاذ ما يدريني (رحمك الله) أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة... قال بلي: اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال لها ما هذه... قال ابن إسحاق عن الزهري قال: بلي ما تشابه عليك من قول الحكيم حتى تقول ما أراد بهذه الكلمة...).

ولعلنا نلاحظ خطورة الكلمة غير الواضحة المعني من وصفها بكلمة الضلالة ولكن إدراك الصورة التطبيقية لهذا المبدأ هو الذي سيعطيه قيمته. وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هي التي توضح لنا الملامح الصحيحة في التطبيق.

- فعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. فيقول له رسول الله: (قل أمنت بالله ثم استقم...)([116]).

فدل السؤال على أن أسلوب التفكير عند السائل هو التفكير الكلي فاتفقت الإجابة مع الأسلوب.

- بينما يأتي سائل آخر - بغير أسلوب هذا السائل - فيقول للرسول صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أي العمل افضل؟ قال: (الصلاة على وقتها) قيل: ثم أي؟ قال (بر الوالدين) قيل: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله) فيقول السائل: ولو استزدته

115 أخرجه أبو داود في كتاب السنة (12/363) من طريق يزيد بن عميرة عن معاذ موقوفاً.
116 رواه مسلم رقم (38) عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

لزادني([117])... وهذا دليل على تجاوب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع السائل في أسلوب تفكيره التحليلي والمتأني.

- ويأتي أعرابي آخر تقول الصحابة فيه: (يسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول)([118]) وهذا طبيعة السائل. فيقول: (يا محمد ماذا فرض الله علي في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات إلا أن تطوع. قال: ماذا فرض الله علي في العام؟ قال: صيام شهر إلا أن تطوع. قال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. قال: أفلح أن صدق، أو دخل الجنة أن صدق) (متفق عليه).

وواضح من طبيعة السائل كما وصفتها الصحابة، والأسلوب الذي سأل به... عنصر السرعة

وواضح كذلك تجاوب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرعة الإجابة التي لاحقت كل أسئلته.

- بينما يأتي سائل آخر بغير الأساليب السابقة ليسأل النبي صلى الله عليه وسلم. فيقول: (أو يأتي الخير بالشر؟ فسكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم، قلنا يوحي إليه، وسكت الناس كأن على رؤسهم الطير، ثم إنه مسح عن وجهه الرحضاء، فقال: أين السائل آنفا؟ وخير هو (ثلاثا) إن الخير لا يأتي إلا بالخير وأنه كما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم كلما أكلت، حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت)([119]).

ولعلنا نلحظ عمق الإجابة بما يتفق مع عمق السؤال وخصوصاً عندما نحاول تفسير هذه الإجابة... ومضمونها أنه مثلما ترعي بقرتان (مما ينبت الربيع)، فرعت واحدة وأكلت بصورة خاطئة فحبطت، وماتت، ورعت الأخرى وأكلت بصورة صحيحة، ثم (استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رعت).

فإن هذا يعني أن مأخذ البقرة الأولى (لما ينبت الربيع) هو الذي قتلها.

ومأخذ البقرة الثانية (لما ينبت الربيع) هو الذي أفادها. ولكن (ما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم).

[117] سبق تخريجه رقم (34).
[118] أخرجه البخاري (1/106) ومسلم رقم (11) عن طلحة بن عيد الله.
[119] أخرجه البخاري (11/244) ومسلم (1052) عن أبي سعيد.

وعلى هذا كانت الإجابة: (أن الخير لا يأتي إلا بالخير) ولكن مأخذ الناس للخير بصورة خاطئة هو الذي ينشئ الشر.

ومع المخاطبة بقدر العقل تأتي أساليب أخري لها نفس القيمة والأثر، منها أسلوب الإثارة العقلية الذي تنشط به طاقة التفكير عند الإنسان لفهم الإسلام.

ومثال هذا الأسلوب من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم:

قوله: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي!) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبي)([120])

وقوله: (من أكبر الكبائر أن يسب الرجل أباه!)، قالوا: كيف يسب الرجل أباه يا رسول الله؟ قال: (يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه ويسب أمه)([121]).

وقوله: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً!)، قالوا: هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: (رده عن مظلمته، فإن ذلك نصره)([122])

وهذه الأمثلة توضح عنصر التعجب من عناصر الإثارة العقلية... يأتي معه عنصر التساؤل الذي يعطي السامع فرصة المبادرة في التفكير.

ومثال هذا الأسلوب من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم: قوله: (مثل المؤمن كشجرة من شجر البوادي لا يسقط ورقها)([123]).

قال عبد الله بن عمر: (فوقع الناس في شجر البوادي. فهممت أن أقول هي النخلة ولكن استحييت لأني كنت أصغر القوم سناً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي النخلة، فقال عمر بن الخطاب: لئن قلتها لكان أحب إلى من كذا وكذا).

وقوله: (سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب) ثم ترك المجلس فقال الناس: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام، وقالوا: لعلهم لم يسجدوا لصنم، وأخذوا يقولون حتى جاء

[120] أخرجه البخاري (13/349) عن أبي هريرة.
[121] أخرجه البخاري (10/403) ومسلم رقم (90) عن ابن عمرو.
[122] أخرجه البخاري (5/98) عن أنس رضى الله عنه.
[123] البخاري (1/229) ومسلم رقم (2811) من حديث ابن عمر.

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلي رهم يتوكلون)([124]).

ومن الحكمة في أسلوب التبليغ بالكلمة... أساس الارتكاز على الطبيعة الإنسانية في المخاطبة، وهذا الأساس هو الذي يحقق من هذه الطبيعة أقصي إمكانية اقتناع بالحق.

فنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم: يرتكز علي الإحساس الطبيعي بالغربة عند الإنسان، ليؤكد غربة الإسلام فيقول: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء). قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: (الذين يصلحون عند فساد الناس)([125]).

وكذلك الإحساس الطبيعي بالعودة بعد الغربة فيؤكد رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الرجوع إلى الله عز وجل، فيقول في دعاء الرجوع من السفر... (آيبون... تائبون... عابدون. لربنا حامدون)([126]).

كما يركز رسول الله صلى الله عليه وسلم على إحساس الإفلاس وهو إحساس بالحسرة، فينقل الرسول الإحساس بالإفلاس في المال إلى الإفلاس في الحسنات يوم القيامة فيقول: أتدرون من المفلس؟ فيقولون: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار... فيقول: المفلس من جاء بحسنات مثل الجبال وكان قد ضرب هذا وشتم هذا وسفك دم هذا فأخذ من حسناته فأعطيت لهم حتى إذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه فطرح في النار ([127]).

كما يركز رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإحساس الطبيعي برحمة الأمومة ليؤكد لنا رحمة الله بعبادة.

فبعد أن وجد امرأة تحتضن ابنها وترضعه وكانت قد عثرت عليه بعد أن فقدته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تظنون أن تلقي هذه بابنها في النار؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: (إن الله أرحم بعباده من هذه الأم بولدها)([128]).

---

[124] أخرجه البخاري (11/405) ومسلم رقم (220) عن ابن عباس.

[125] رواه مسلم رقم (145) عن أبي هريرة ولفظه: (الذين يصلحون...) عند الطبراني في الكبير (69/164) من حديث سهل بن سعد.

[126] البخاري (6/192) عن ابن عمر، ومسلم رقم (1344) عن ابن عمر أيضاً.

[127] أخرجه مسلم رقم (2581) عن أبي هريرة.

[128] رواه البخاري (10/426) ومسلم رقم (2754) عن عمر بن الخطاب.

- ومن الحكمة في أسلوب التبليغ:

التناسب الدقيق بين صيغة التبليغ وموضوعة:

فإذا كان الموضوع موضوعاً غيبياً مثلاً، فإنه يلزم في أسلوب الحديث عنصر التشبيه والمقارنة بين الغيب والشهادة.

مثال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في البعث (والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون) وقوله في النشور: (ثم يترل ماء من السماء يشبه المني فينبت الإنسان من الأرض كما ينبت النبات)([129]).

وقوله في المرور فوق الصراط: (كالبرق وكأجاويد الخيل)([130]) [في الصحيح رواه البخاري ومسلم].

وقوله صلى الله عليه وسلم في وصف النار: (ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ولو لم تطفأ بالماء سبعاً لما انتفعتم بها)([131])، وقوله: (أشد ما تجدون من الحر فهو من فيح جهنم)([132]).

كما يلزم الربط بين الغيب والشهادة من خلال الواقع والأحداث والأشخاص...

فمن خلال الواقع يربط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الجنة والقتال فيقول: (الجنة تحت ظلال السيوف)([133]). ومن خلال الأشخاص يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا بلال لقد سمعت وقع أقدامك في الجنة فماذا تفعل)([134]) فيقول: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما توضأت وضوءاً إلا صليت ركعتين. ويشير الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرجل ويقول: (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا الرجل)([135]).

---

[129] أخرجه البخاري في تفسير سورة النبأ (689 - 8/690): ثم يترل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل... الحديث وفي مسلم نحوه رقم (2940).

[130] أخرجه مسلم رقم (110/ 6) عن عائشة. و أنظر المسند (6/110) عن عائشة.

[131] البخاري (330 /6) ومسلم (2843) عن أبي هريرة.

[132] أخرجه البخاري (6/330) ومسلم رقم (617) عن أبي هريرة.

[133] البخاري (6/33) ومسلم رقم (1742) عن ابن أبي أوفي.

[134] أخرجه الترمذي رقم (3689) وقال (هذا حديث صحيح غريب) وهو كما قال.

[135] رواه مسلم رقم (14) عن أبي هريرة.

الثالث: الصراع بالكلمة:

وأسلوب الدعوة الصحيح لا يعني أن يؤمن كل الناس، ولكنة يعني أن ترجع أسباب كفر من يكفر منهم إلى نفسه فلا يكون أسلوب الدعوة ذاته سبباً من أسباب الكفر.

ولذلك فإن أسلوب الدعوة الصحيح لا يلغي افتراض عداء الناس لهذه الدعوة.

وتحديد أسس الصراع بالكلمة بين الجاهلية والإسلام هو المواجهة الحقيقية لهذا الافتراض.

ومن الطبيعي في تحديد حقيقة أي صراع أن نعرف أطرافه أهدافه، وتعريف الكلمة الإسلامية في مواجهة الكلمة الجاهلية هي بداية هذا التحديد.

فالكلمة الإسلامية هي نور الله، والكلمة الجاهلية هي حركة لسان. (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [سورة التوبة الآية: 32].

والكلمة الإسلامية أصلها ثابت وفرعها في السماء، والكلمة الجاهلية اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ) [إبراهيم الآيات: 24 - 26].

والكلمة الإسلامية هي العليا والجاهلية هي السفلي... (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [سورة التوبة الآية: 40].

وواضح من النص أن علو الكلمة الإسلامية علو ذاتي وليس هذا العلو نتيجة من نتائج هذا الصراع ([136]).

[136] (وجعل كلمة الذين كفروا هي السفلي وكلمة الله هي العليا) فاقترنت كلمة الكفار بالجعل أي أنها نتيجة لشيء، وكلمة الله أكد تعليتها بالضمير المنفصل وبالجملة الإسميه الدالة علي الثبوت عكس الجملة الفعلية التي تدل علي التغير.

وبعد تحديد أطراف الصراع يتأكد أن الكلمة الجاهلية ليست شيئاً فهي حركة خبيثة بالأفواه لا حقيقة لها ولا أصل ولا شأن لها ولا قوة ورغم ذلك يبلغ تأثيرها في الواقع البشري حد السيطرة الكاملة تقريباً وتحليل هذه الظاهرة هي أساس اتخاذ الموقف الإسلامي الصحيح في هذا الصراع.

والكلمة الجاهلية وحي شيطاني بدليل قول الله: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) [سورة الأنعام الآية: 112].

ونرى زخرف القول في الكلمة الجاهلية ممثلاً في الشكل المنطقي ([137])... فعندما أنزل الله تحريم الميتة قالت اليهود: وكيف لا نأكل مما ذبح الله ونأكل مما ذبحنا نحن ([138]).

فأنزل الله: (وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) [سورة الأنعام الآية: 121].

كما نري زخرف القول في الصورة المثالية التي تحاول الجاهلية أن تصيغ فيها كلمتها وفكرها وقد وضحت هذه الصورة في طواف المشركين عرايا حول البيت الحرام معللين ذلك بضرورة عدم الطواف بالثياب التي يخطئون فيها.

ونري زخرف القول في الصفة المبدئية التي تعطيها الجاهلية لنفسها ليظهر الجاهليون كأصحاب مبدأ واثقين بما معهم ثابتين على ما هم عليه... وهذا أبو جهل يقول قبل غزوة بدر: اللهم اقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة. فكان المستفتح ([139]).

وقال السدى كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر فأخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلي الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله تعالى: (إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ) [سورة الأنفال الآية: 19] يقول لقد نصرتم وقلتم وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

---

[137] والشكل المنطقي من أخطر الأساليب في إضلال الإنسان، بدليل قول رسول الله صلى اله عليه وسلم: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول له: من خلق السموات؟ فيقول: الله. ومن خلق الأرض؟ فيقول: الله. فيقول له: ومن خلق الله)؟ رواه مسلم ويراجع كتاب نقض المنطق للإمام ابن تيميه.

[138] أخرجه البخاري (6/336) ومسلم رقم (134) عن أبي هريرة.

[139] أخرجه أحمد في مسنده (5/431) من حديث عبد الله بن ثعلبة – وهو ابن صُعير – وهو صحابي صغير يقال إن له صحبة والصحيح أن حديثه مرسل صحابي وسنده جيد.

ونرى زخرف القول في المظهر الإنساني الذي تظهر به الجاهلية... وهذا عقبة بن ربيعة يقول في الإسلام: (فرق الناس، وخرب الديار، وجعل الولد يقتل والده).

وزخرف القول هو الخط الأول من خطوط الصراع بالكلمة من الجانب الجاهلي، يليه خط الفصل بين الإنسان والإسلام، وذلك من خلال منع الكلمة الإسلامية من الظهور: (لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) [سورة فصلت الآية: 26]، ومقاومة أثر الكلمة إذا ظهرت ومن ذلك إصرار المنافقين على اسم يثرب بعد أن دخل الإسلام في المدينة فسميت طيبة، باعتبار أن هذا الاسم أثر من آثار الإسلام في الواقع: (يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) [سورة الأحزاب الآية: 13] كما تمارس الجاهلية الفصل بين الإنسان والإسلام من خلال المساومة عليه والمداهنة فيه: (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) [سورة القلم الآية: 9] حتى يضيع الحق بتلك المداهنة.

ومن أخطر الأساليب الجاهلية للفصل بين الإنسان والإسلام عندما يفرض كأمر واقع هو اتخاذ موقف المتبني له والداعي إليه، والرافع لشعار الإيمان به وقد كانت هذه الفكرة هي علة المحاولة الساذجة التي حاولها ابرهة الحبشي، عندما يئس من هدم الكعبة فبني كعبة أخري في بلاده ليصرف الناس عن بيت الله الحرام، ومثلما بني المنافقون مسجداً ضراراً ليصرفوا الناس عن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وموقف بناء الكعبة المزيفة والمسجد الضرار هو موقف الجاهلية دائماً عندما تفشل في مواجهة واقع إسلامي.

وتعتبر الجاهلية أن الفصل بين الإنسان والإيمان ابتداء والفصل بين المؤمنين وحقيقة الإيمان هو الوسيلة الأساسية التي تفر بها من مواجهة مؤكدة الفشل مع الوجود الإيماني الصحيح، وهذه قريش تعذب ثم أبواب التعذيب بعد أن وجدت في التعذيب إصرار على الإيمان وتمسكاً به.

وتفتح أبواب الدنيا... بآمال يصعب الفرار منها.

(إن كنت تريد مالاً أعطيناك([140]) إن كنت تريد سيادة سودناك... وعندنا أجمل بنات العرب...).

فالدراهم المعدودة أثقل وزناً من الحجر الذي كان على صدر بلال.

[140] أخرجه ابن إسحاق في المغازي كما في سيرة ابن هشام (1/185) وحسن الألباني إسنادها عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً.

وإشارة الإغراء أسرع انزافا من الحربة التي ضربت بها سمية في فرجها.

والإيمان هو الحقيقة، والدليل عليها كل كلمة حق خالصة.

هذه هي أبرز الخطوط التي تتحرك فيها الجاهلية في مجال الصراع بالكلمة مع الإسلام.

واستمرار في تحديد طبيعة الصراع بالكلمة بين الجاهلية والإسلام تتحدد كذلك الأسس التي يجب أن يتحرك بها المسلمون في صراع الكلمة مع الجاهلية.

وأبرز هذه الأسس:

أ) رد الفكر الجاهلي إلى الواقع الجاهلي:

وقيمة هذا الأساس هي إبراز التناقض بينهما لرد أي إدعاء جاهلي وتكذيبه ولهذا رد القرآن إدعاء اليهود والنصارى بأنهم أبناء الله إلى واقعهم: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ) [سورة المائدة الآية: 18].

ب) كمال المواجهة:

وأساس الكمال في الجاهلية يعني أن يكون هناك رد لكل فكرة تثيرها الجاهلية ضد الإسلام، وهذا معنى قوله تعالى:(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) [سورة الفرقان الآية: 33].

كما يعني أن تكون الكلمة الأخيرة في أي جدل هي الكلمة الإسلامية وهذه قاعدة نجدها في كل حوار جاء في كتاب الله بين الجانب الإسلامي والجاهلي.

وحتى عندما يضطر المسلم للسكوت في جدل مع الجاهلية فإن يقول ما يثبت به قدرته على المواجهة ويثبت أن سكوته ليس عجزاً، إنما تنزها عن الاستمرار في مجادلة مع الجاهلية ليست بالحسنى وذلك في قوله تعالى:(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) [سورة الفرقان الآية: 63].

ج) استرداد المفاهيم المغتصبة:

وهذا الأساس يعني أن نسترد أي مفهوم اغتصبته الجاهلية وأضافته إلى واقعها الفكري لتؤثر من خلاله على العقل البشري، وقد عرض القرآن حواراً بين مؤمن آل فرعون وبين فرعون استرد فيه المؤمن مفهوم (الرشاد) الذي اغتصبه فرعون فوصف به نفسه،

وكان الحوار هو قول الله: (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) [سورة غافر الآية: 29]، ويستمر الحوار (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) [سورة غافر الآية: 38].

فيسترد المؤمن بذلك مفهوم الرشاد. وبهذا الأسلوب تنشأ ضرورة استرداد أي مفهوم مغتصب بالتحديد الإسلامي الكامل لهذه المفاهيم وإثبات أنها لا تحتوي مضموناً ولا تمثل معنى إلا بالتصور الإسلامي.

ومثال ذلك مفهوم (العدل الاجتماعي) الذي اغتصبته الشيوعية ومفهوم (المحبة) الذي اغتصبته الصليبية.

د) الجدل بالتي هي أحسن... وهو أهم الأسس:

والجدل بالتي هي أحسن هو قرينة الحكمة في النص القرآني الذي أمر الله فيه بالدعوة إلى سبيله بها: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [سورة النحل الآية: 125]، وتحديد المبادئ التي نسير عليها في الجدل مع الجاهلية، من أهم أسس الصراع بالكلمة.

وهذه المبادئ تتحدد بصفة أساسية في عدة أمور:

1) مبدأ افتراض المخالفة... وهو المدخل الذي يضع الطرف المجادل في أول الطريق الصحيح للتفكير، وبعد أن يطمئن إلى أن الطرف المسلم يضع نفسه معه في موضع المجادلة المشتركة لمعرفة الحق. ودليل هذا المبدأ هو قول الله: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [سورة سبأ الآية: 24].

والمساواة بين الطرفين في احتمال الهدي أو الضلال. لا يعني المساواة بين تصور الطرفين لأن النص أثبت التقابل التام في التصور.

(لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [سورة سبأ الآية: 24]. كما لا يعني انتقاض اليقين فيما عليه الجانب المسلم، ولكنه افتراض جدلي يثبت التجرد الإسلامي للحق. وقوله: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [سورة سبأ الآية: 24].

هذا من باب اللف والنشر: أي أن واحد من الفريقين مبطل والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدي أو على الضلال، بل واحد منا مصيب)([141]).

(قال قتاده: قد قال ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم للمشركين والله ما نحن وإياكم على أمر واحد أن أحد الفريقين لمهتد)([142]).

2) نفي الفضل الشخصي في مجال الجدل...

وهذا ما نتعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن حيث الوصول إلى الحق يكون الدليل قول الله: (وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي) [سورة سبأ الآية: 50]

ومن حيث الاعتقاد فيه يكون الدليل قول الله: (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) [سورة الزخرف الآية: 81].

فليس لي موقف شخصي تجاه العقيدة إلا التسليم بما يأمرني به ربي ومن حيث التكليف به يكون الدليل...(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) [سورة هود الآية: 88].

وهذا ما يثبت كذلك التجرد الإسلامي للحق.

3) مبدأ طلب الدليل... وهو كذلك مبدأ جدلي يجب الالتزام به حتى مع الاعتقاد ببطلان الأمر الذي نطلب عليه الدليل.

ودليل ذلك قول الله: (قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [سورة البقرة الآية: 111].

4) مبدأ السماع الكامل... وهو المبدأ الذي يحقق صفة التدبر لأن التدبر من الدبر أي الآخر. وهذا يعني أن التدبر لا يتحقق إلا بسماع الكلام إلى آخره.

---

141 تفسير ابن كثير.

142 تفسير الطبري

كما أن سماع الطرف المقابل إلى النهاية يوحي بثقة الطرف المستمع فيما عنده وهذا رسولنا عليه الصلاة والسلام يتحدث إليه عتبة بن ربيعة فلا يقاطعه الرسول حتى ينتهي ثم يقول له: (انتهيت)؟ قال: نعم. قال: (فاسمع مني)([143]) وهكذا.

5) مبدأ الدفاع عن الرأي... وهو معنى الجدل، والالتزام بهذا المبدأ سيحدد مقياساً علمياً لأطراف الجدل، لأنه لن يدخل الجدل إلا من هو على يقين بما عليه من رأي، ومجرد اتهام الرأي المخالف لا يتطلب العلم الذي يتطلبه الدفاع عن الرأي الصحيح. ولذلك فإن الالتزام بمبدأ الدفاع عن الرأي سيترتب عليه ارتفاع المستوي العلمي اللازم لتكوين الرأي مع انحسار موجة الجدل في حدود الضرورة.

ثانياً؛ استخدام القوة:

ومع الأسلوب الصحيح في التبليغ والمواجهة السليمة في الصراع بالكلمة بين الجاهلية والإسلام تتأكد ضرورة القوة في مهمة التبليغ.

فللقوة أثر عميق في فهم الحق، ولهذا قال قوم شعيب له(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) [سورة هود الآية: 91]، وواضح من الآية أن رؤية قوم شعيب له ضعيفاً هي علة عدم فقههم للدعوة.

ولذلك يأمر الله عز وجل نبينا عليه الصلاة والسلام أن يشرد بالكفار من خلفهم لكي يتذكروا ويفهموا (فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) [سورة الأنفال الآية: 57].

واعتبار القوة وسيلة هداية يحتم أن تصطبغ الدعوة بها.

ولهذا يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم معنى القوة محتوياً لمضمون الدعوة، فيقول: (بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري)([144]).

[143] وهذا الأثر أخرجه ابن إسحاق في المغازي كما في سيرة بن هشام (1/185) بسند مرسل حسن قال الألباني ووصله عبد بن حمير وأبو يعلي والبغوي من طريق آخر وسنده حسن.

[144] أخرجه أحمد (2/50) عن ابن عمر وسنده حسن كما قال الحافظ في بلوغ المرام وفي الفتح (10/22) وصححه الشيخ شاكر في شرح المسند رقم (5114) وأنظر حجاب المرأة للألباني (ص 104).

ومن أجل اصطباغ الدعوة بصبغة القوة تجد آيات قرآنية وأحاديث نبوية ليس القتال موضوعها ولكن يشعر من يقرؤها بامتزاج القوة في حقيقة هذا الدين. مثال قوله تعالى:(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) [سورة النجم الآية: 9] في تحديد المسافة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرش الرحمن ليلة الإسراء حيث تحددت بقاب قوسين، ومثال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحديد وقت صلاة الضحى بأنها وقت ارتفاع الشمس في السماء: (قدر رمحين).

واعتبار القوة وسيلة من وسائل الهداية ليس فيه تجاوز على وسيلة الإقناع بالكلمة ولكن ما يترتب على ذلك هو تحديد الأسلوب القتالي بهذا الاعتبار حتى لا تنفصل الحركة القتالية عن هدف الهداية، وارتباط حركة القتال بهدف الهداية يتحقق بأحكام محددة يجب الالتزام بها وأهمها.

– التبليغ قبل القتال؛ (ما قاتل رسول الله قوماً إلا دعاهم)([145])، وهو التبليغ العام، أما التبليغ الذي يسبق القتال مباشرة فإنه يكون بعد التبليغ العام وهو مرتبط بالإمكانية العملية لأصحاب الدعوة بمعنى أنه يجوز القتال دون أن يحدث هذا التبليغ، والدليل في كتاب الجهاد والسير من صحيح البخاري ([146]) (باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة):

حدثنا سليم بن أخطر بن عدي قال: (كتبت إلي نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال قال: فكتبت إلي إنما كان ذلك في أول الإسلام...فقد أغار الرسول صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تستقي على الماء فقتل مقاتليهم وسبي سبيهم وأصاب يومئذ جويرية ابنة الحارث).

– تبليغ الأسري بدليل؛ قول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [سورة الأنفال الآية: 70].

[145] أخرجه أحمد في مسنده رقم (2053) عن ابن عباس ما قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً حتى يدعوهم وسنده صحيح وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (11/95) و(11/32) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (5/304): (رواه احمد وأبو يعلي والطبراني. بأسانيد ورجال أحدها الصحيح).

[146] أخرجه مسلم في كتاب الجهاد رقم (1730) باب: جواز الإغارة علي الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من طريق سليم بن أخضر عن ابن عون كتبت إلي نافع أساله عن الدعاء قبل القتال... الحديث. و أخرجه البخاري في العتق (5/170) من طريق ابن المبارك عن ابن عون.

– إنهاء القتال أو الأسر بمجرد تحقق هدف الهداية؛ بدليل قول الله: (فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [سورة التوبة الآية: 5]. وقوله سبحانه: (فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [سورة التوبة الآية: 11]

– إجارة المشرك حتى يسمع كلام الله؛ بدليل قول الله: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ) [سورة التوبة الآية: 6].

– وبصفة أساسية فإن ارتباط الحركة القتالية بهدف الهداية يتحقق بتقديم هذه الهدف على غرض القتال سواء كرغبة نفسية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموه فأثبتوا)([147]). أو كطمع في غنيمة لقول الله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) [سورة النساء الآية: 94]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها)([148]) ويعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ عندما تطلب الصحابة منه أن يدعو بهلاك إحدى القبائل فيقولون يا رسول الله: ادعُ الله أن يهلك دوس، فيقول عليه الصلاة والسلام: (اللهم إهد دوساً)([149]).

ثالثاً: قيام السلطة:

واعتبار القوة وسيلة هداية يرجع إلى كونها أساساً لقيام السلطة الإسلامية التي تعتبر بدورها أساساً في تحقيق الهداية.

ودليل العلاقة بين القوة والسلطة والهداية هو قول الله عز وجل: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) [سورة النصر: الآيات: 1 – 3].

ولذلك يجب أن يكون خط القتال مشدوداً إلى موقع السلطة لتحقيق العلاقة التي أثبتها القرآن بين النصر والفتح باعتبار أن النصر هو النتيجة العسكرية للقتال وأن الفتح

[147] أخرجه البخاري (6/156) ومسلم رقم (1741) عن أبي هريرة.
[148] أخرجه البخاري (7/70) ومسلم رقم (2406) عن سهل بن سعد.
[149] أخرجه البخاري (8/101) ومسلم رقم (2524) عن أبي هريرة.

هو النتيجة السياسية للنصر، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر بعد القتال أياماً في موقع القتال يقيم الأحكام لتصبح دار الحرب داراً للإسلام، ويتحقق الفتح بعد النصر، مثلما انتظر الرسول في مكة بعد الفتح، وإثبات القرآن للعلاقة بين القتال والسلطة هو الذي يرد أي تصور لقيام السلطة بغير القتال. ذلك لأن السلطة الإسلامية هي التي يتحقق بها الإظهار لدين الحق ولو كره الكافرون، (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [سورة الصف الآية: 9، والتوبة: 33]، ولن يكون ذلك إلا بالقوة كما أن السلطة الإسلامية هي التي يأمن تحتها المسلم على ماله ودينه وعرضه ولن يكون ذلك أيضاً إلا بالقوة.

كما أن القتال كأسلوب للوصول إلى السلطة يمحص أصحاب الدعوة تمحيصاً يحدد العناصر القادرة على تحمل مسئولية السلطة وتكاليفها، ذلك لأن المسلم الذي مر بتجربة الاستضعاف وبيع النفس لله بالقتال في سبيله سبحانه... هو المسلم الذي يغلب الظن بقدرته على تحمل تلك المسئولية وهذه التكاليف دون عجز أو فتنة.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار الولاة على البلاد التي تفتح على المسلمين من الذين خاضوا تجربة الاستضعاف فأنكرت قلوبهم فتنة الدنيا وأصبحت لا تضرهم ما دامت السموات والأرض.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً أيما قلب اشربها نكتت في قلبه نكته سوداء وأيما قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء فأصبحت القلوب على صنفين قلب أبيض كالصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض)([150]).

المنطلق الثاني؛ وهو الإحكام بين مراحل العمل:

ومعناه تحديد الأسس التي يتم بها الانتقال من مرحلة عملية إلى مرحلة عملية أخري وأن تكون كل مقتضيات الحركة مرتبطة بالمرحلة التي تمر بها من خلال أسس ثابتة للتحرك وأهم هذه الأسس:

1) نظام التحرك:

فمن حيث نظام الارتباط يكون في مرحلة النشأة ارتباط فردي وفي مرحلة الامتداد يكون ارتباطاً عاماً.

[150] رواه مسلم رقم (144) من حديث حذيفة بن اليمان.

ومن حيث نظام التحرك يكون في مرحلة النشأة تحرك محدود مثلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم وكان كل من يريد اعتناق الإسلام يذهب إليه في تلك الدار لا يعلم أحد مكانه ([151]).

أما التحرك في مرحلة الامتداد فهو تحرك عام مثل تحرك الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة حيث كان يغشي الناس في مجالسهم. حتى أن عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين أراد أن يتحدد تحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: لا تغشنا في مجالسنا ولكن إذا أتي أحد إليك فتحدث معه فقد آذانا نتن حمارك، فكان سعد بن عبادة جالساً مع القوم فقال: لا يا رسول الله، بل أغشنا في مجالسنا ([152]).

وبذلك يريد عبد الله بن أبي أن يرجع بأسلوب تحرك الدعوة إلى ما كانت عليه في مكة وهذا ما رفضه أنصار المدينة. و لم يذكر رأس المنافقين سبباً لطلبة هذا سوي كلمة: لقد آذانا نتن حمارك.

وهذه الكلمة هي موقف الجاهلية الثابت عندما يفرض انتشار إسلامي ولا تستطيع رفضه مباشرة لأي سبب من الأسباب فتختلق المبررات التي تمنع بها هذا الانتشار حتى لم يجد رأس المنافقين ما يقوله سوي هذه الكلمة التي يفوح منها الشعور الجاهلي العفن تجاه أي امتداد إسلامي.

وقد تستغل الجاهلية أي خطأ قد يقع فيه أصحاب العدوة وتراه سبباً لمنع الانتشار فتضخمه وتنشره، وتهول به مثلما حدث عندما تلاحي رجل من المهاجرين مع رجل من الأنصار. فاستغل عبد الله بن أبي الموقف وأخذ يحرض على المهاجرين وفي ذلك جاء قول الله عز وجل: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ 7 يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [سورة المنافقون الآية: 7، 8].

وبأسلوب إعلامي خبيث قال عبد الله بن أبي (مثلكم ومثل هؤلاء – يعني الأنصار والمهاجرون – كمثل القائل (سمن كلبك يأكلك)([153]).

---

[151] أصحاب الأخدود للكاتب.

[152] أخرجه البخاري (10/122) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

[153] أخرجه ابن إسحاق عن قتادة مرسلاً راجع الفتح للحافظ (8/650) وابن كثير في التفسير (7/18).

ولعل إدراك الموقف الجاهلي من الامتداد الإسلامي المفروض عليها يعمق عند كل مسلم مسئولية المحافظة على هذا الامتداد عند التحرك في مجال الدعوة.

2) اعتبار المآل:

واعتبار المآل هو توقع النتيجة التي ستحدث بعد الانتقال من مرحلة إلى أخرى لتفادي أي أثر غير مقبول قد يحدث بهذا الانتقال.

واعتبار المآل أصل من أصول الفقه وملخصه أنه إذا كان هناك عمل جائز في ذاته ولكن مآله غير مقبول صار هذا العمل غير جائز لقول الله: (وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) [سورة الأنعام الآية: 108] حيث وضح من النص أن سب الذين يدعون من دون الله صار أمراً غير جائز باعتبار المآل وهو سب الله سبحانه وتعالي والأسس التطبيقية لذلك الأصل في مجال الدعوة هي:

– إذا كان العمل الذي له مآل غير مقبول عملاً ضرورياً في ذاته وليس له بديل فإننا لا نتوقف عن هذا العمل ونواجه ذلك المآل. مثال اتخاذ الكافرين لنداء المسلمين إلى الصلاة هزواً ولعباً بدليل قول الله: (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا) [سورة المائدة الآية: 58] إذ أنه ليس معنى أن يتخذ الكافرون النداء إلى الصلاة هزواً ولعباً أن نتوقف عن النداء، لأنه عمل ضروري وليس له بديل.

– إذا كان العمل له بديل توقفنا عنه وفعلنا ذلك البديل لتفادي المآل المترتب على هذا العمل مثال قول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [سورة البقرة الآية: 104]

إذ ورد في تفسير الآية أن اليهود كانت تقول (راعنا) أي أرعننا وجعلوها من الرعونة، والكلمة من المراعاة، فكانوا بذلك يسبون النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء أمر الله بتغيير كلمة راعنا بكلمة بديلة وهي (انظُرْنَا).

– وفي التفريق بين المآل المقبول والغير مقبول يجب أن نفرق بين ما قد يصيب الدعوة من ضرر وما يصيب الأشخاص من أذى، فما يصيب الدعوة من ضرر هو المآل الغير مقبول، ولكن ما يصيب الأشخاص من أذى فهو مآل لابد أن يكون، وبذلك يلزم التوقف عن أي عمل يترتب عليه ضرر للدعوة كما يلزم عدم التوقف عن أي عمل لمجرد توقع الأذى للأشخاص بل نعمله مع بذل الطاقة لدفع هذا الأذى والصبر عليه عندما يقع.

والدليل على التفريق بين الضرر والأذى هو قول الله عز وجل: (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى) [سورة آل عمران الآية: 111] حيث أن معنى النص هو أنه لن يضروكم في دعوتكم ودينكم، ولكن قد يصيبوكم في أشخاصكم ودنياكم.

3) الاتزان الحركي:

ومفهوم الاتزان الحركي... مقصود به أن يكون الانتقال المرحلي مجرد من الاندفاع والانفعال والحماس. وبأن يكون الانتقال بعامل زمني منضبط. فلا تنفلت الحركة بالاندفاع النفسي من قيد الإمكانيات العملية، والانضباط الزمني للتحرك هو الحد الفاصل بين السرعة المطلوبة بالصفة العملية والتعجل المحذور بالصفة النفسية.

والقرآن يعلمنا من خلال قصة سليمان مبدأ الاهتمام بالوقت وذلك في موقف الآتيان بالعرش عندما قال: (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ 38 قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ 39 قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [سورة النمل الآيات 38 - 40].

وواضح من الآيات أن الذي أتي بالعرش هو الذي عرض إمكانية الأتيان به أسرع من الأخر.

والاهتمام بالوقت هو الذي يحمي الحركة من صفة التأخر المنهي عنها، بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله)([154]).

ولقد تبين لنا من خلال منهج التربية كيف أن الوصول إلى مرحلة الربانية هو الذي يحقق الاتزان النفسي عند الداعية ويحميه من الاندفاع ويعينه على تحمل أي ضغط أو معاناة...

كما تبين لنا أن الحماس أمر مرفوض في مجال الدعوة. وأنه وإن كان يمثل في ظاهره طاقة فإنها في حقيقتها طاقة وهمية وليست باقية.

[154] رواه مسلم (438) عن أبي سعيد.

وهذا الاتزان النفسي هو الذي يحمي الحركة من صفة التعجل المنهي عنها بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من مكة إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون ([155]).

ولذلك يقول ابن القيم في الحكمة: (ولها ثلاثة أركان: العلم والحلم والأناة، وآفاتها وأضدادها: الجهل والطيش والعجلة، فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول والله اعلم)([156]).

4) حماية الولاء:

ومن أسس الانتقال المرحلي للدعوة أساس حماية الولاء. لأن الولاء سمع وطاعة، ودخول الجماعة المسلمة في مرحلة يعجز الفرد عن تحمل مشاقتها سيجعله يعيد التفكير في ولائه فيضطرب وضع الولاء في الجماعة.

ولذلك طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعه من الأنصار عندما أراد أن يخرج إلى قريش خارج المدينة، وذلك حتى يرتفع مستوى الولاء إلى طبيعة المرحلة القادمة. لأن البيعة التي تمت الرسول صلى الله عليه وسلم والأنصار قبل بدر كانت تنص على حمايته في المدينة.

واستجابت الأنصار، وقال سعد بن معاذ كلمته المشهورة (إنا لن نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) [سورة المائدة الآية: 24]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكماَ مقاتلون ([157]).

كما طلب الرسول صلى الله عليه وسلم بيعة من المسلمين لما أراد أن يحارب قريشاً بعدما جاءه خبر مقتل عثمان وكانت بيعة الرضوان.

والواقع أن حماية الولاء مسألة نفسية دقيقة. وخصوصاً عندما يكون تحقيق هذا الولاء في واقع فيه الشح مطاع والهوى متبع وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ويكون المطلوب تحقيقة هو مقتضيات الولاء وأهمها العطاء والالتزام والتجرد.

[155] البخاري (7/164) عن خباب يبق في التعليق رقم (84).
[156] مدارج السالكين ص 500.
[157] أخرجه البخاري (8/273) عن ابن مسعود.

وكما يراعي مستوي الجماعة قبل الدخول في مرحلة جديدة يراعي مستوى الفرد في تكليفه بمهمة معينة لأن التكليف بلاء، والبلاء يجب أن يتناسب مع دين الفرد لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يبتلي المرء بقدر صلابته في الدين، فإن علم في دينه صلابة زيد في ابتلائه. وإن علم في دينه رقة خفف من ابتلائه)([158]).

وحماية الولاء مهمة يجب أن تتلازم مع نشأته من البداية.

ولذلك حدد القرآن الكريم الأسلوب المرحلي الذي يتم به التعامل مع النفس البشرية لتحقيق الولاء وتبدأ مراحل نشأة الولاء بمثل قوله تعالى:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [سورة النور الآية: 62]، وهي مرحلة تتأكد فيها سلطة النبي صلى الله عليه وسلم على المسلمين ممثلة في قوله تعالى:(فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ) [سورة النور الآية: 62].

لتنتهي مراحل نشأة الولاء بمرحلة الولاء الكامل محددة بمثل قوله تعالى:(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) [سورة الأحزاب الآية: 36].

5) الارتباط بالغاية:

ووضوح الغاية من البداية فيه تحقيق للبصيرة في الدعوة ولذلك كانت صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدركون من البداية ما معنى دخولهم في الإسلام... وما هي المراحل الحتمية التي سيخوضونها باعتناقهم لهذا الدين.

وهذا أحد الأنصار في بيعة العقبة يقول: (أتدرون على أي شيء بايعتم رسول الله؟، لقد بايعتوه على الموت)([159]) فتأكد من القول أن وضوح الغاية يحقق اليقين بقدوم المواجهة. فيتحقق الاستعداد لها.

والاستعداد والرغبة في المواجهة يوازي في قيمته المواجهة ذاتها، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من مات و لم يغزُ و لم تحدثه نفسه بغزو مات ميتة جاهلية)([160]).

[158] أخرجه الترميذي رقم (2398) وغيره وقال حسن صحيح.
[159] البخاري (6/117) عن ابن عمر. وعن سلمة بن الأكوع في الجهاد باب البيعة في الحرب.
[160] رواه مسلم رقم (1910) عن أبي هريرة.

ووضوح الغاية يحقق كذلك الشعور بالشوط الذي قطعه الداعية في طريق التحقيق لتلك الغاية. وبالتالي فإن هذا الشعور يقوي فيه إرادة الاستمرار وعزم الوصول.

وهذه طبيعة إنسانية ارتكز عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في واقع الدعوة.

وهذا موقف يثبت ذلك... عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش في سرية لترصد عير قريش كتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ولما فتح الكتاب وجد فيه: (إذا نظرت في كتابي فأمض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم ولا تكره أحداً ممن معك)، فقال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه كلهم بذلك وبأنه لا يستكرههم فمن احب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع وأما أنا فناهض، فنهضوا كلهم)([161]).

وواضح من الحديث أن المهمة كانت خطيرة... وأنها تتطلب عزما وإرادة.

ولذلك لم يخبرهم الرسول بها حتى يقطعوا شوطاً منها وهو مسيرة يومين ليكون قطع هذا الشوط عوناً لهم في إرادة الاستمرار لتحقيق الهدف والغاية.

وهذه حقيقة فطرية تتحدد بها قيمة الإحساس بالشوط المقطوع في طريقنا لتحقيق هدفنا وغايتنا، والارتباط بالغاية من الناحية العملية يعني أن تكون كل الوسائل والإمكانيات مشدودة إلى تحقيق تلك الغاية فلا تشذ وسيلة عن اتجاهها ولا تتحول وسيلة في ذاتها إلى غاية.

وهذا هو الحق... كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي يده سيف: (من يأخذ هذا السيف بحقه)؟ فقام رجل وقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: (أن تقاتل به في سبيل الله حتى تقتل)([162]).

وواضح من الحديث أن المرحلة التي يتمكن فيها المسلم من حمل السلاح ينشأ معها حق القتال به حتى يقتل في سبيل الله.

وهكذا ترتبط المراحل رغبة في القتال، ثم استعداد وإعداد - ثم قتال في سبيل إعلاء كلمة الله، وشهادة يتحقق بها رضا الله ودخول الجنة.

---

[161] أخرج هذه القصة الإمام أحمد في المسند (1/178) من حديث سعد بن أبي وقاص.
[162] أخرجه مسلم رقم (2470) عن أنس وهذا الرجل هو أبو دجانه سماك بن خرشة.

خاتمة

على هذه الأسس يرسي القرآن قواعد الدعوة ومبادئها ويعين وسائلها وطرائقها ويرسم المنهج للرسول الكريم، وللدعاة من بعده بدينه القويم فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن.

إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه. فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله، لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به، وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي بينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضاياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل بالتي هي أحسن. بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة. وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذي يطامن هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة.وان الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء غليها: في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأية وهزيمة الرأي الآخر!

ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين. فلا ضرورة للحاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله.

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة.

فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير، فالإعتداء عمل مادي يدفع بمثله اعزازاً لكرامة الحق، ودفعا لغلبة الباطل، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتقطيع، فالإسلام دين العدل والاعتدال ودين السلم والمسالمة، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ) [سورة النحل الآية: 126].

وليس ذلك بعيداً عن دستور الدعوة فهو جزء منه. فالدفع عن الدعوة في حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها، فلا تهون في نفوس الناس. والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد ولا يثق أنها دعوة الله.

فالله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها، والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة الله والعزة لله جميعاً – ثم إنهم أمناء على إقامة الحق في هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس وقيادة البشرية إلى الطريق القويم، فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقبون فلا يعاقبون ويُعتدي عليهم فلا يردون؟

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر، حتى يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان، في الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً وأكثر فائدة للدعوة – فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر. فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها، فالقاعدة الأولى هي الأولى.

ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال، وضبط للعواطف، وكبت للفطرة، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه: (وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ) [سورة النحل الآية: 126 - 127] فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس، والاتجاه إليه هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره.

ويوصي القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم وهي وصية لكل داعية من بعده، ألا يأخذه الحزن إذا رأي الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدي والضلال بيد الله وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها للهدي أو الضلال، ألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورائها شيئاً لنفسه.

ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره ويبطيء عليه النصر لابتلاء ثقته بربه، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة: (إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُون) [سورة النحل الآية: 128]، ومن كان الله معه فلا عليه مما يكيدون ومما يمكرون.

هذا هو دستور الدعوة إلى الله كما رسمة الله...

والنصر مرهون باتباعه كما وعد الله...

ومن أصدق من الله؟([163]).

[163] في ظلال القرآن... تفسير قول الله:(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)(سورة النحل الآية: 125)

فهرس الموضوعات